وكلامه من جنس كلام طائفة تظن أنه لا يمكن إلا أحد القولين : قول من يقول : إنه ينزل نزولاً يخلو منه العرش.

وقول من يقول : ما ثم نزول أصلاً كقول من يقول : ليس له فعل يقوم بذاته باختياره.

وهاتان الطائفتان ليس عندهما نزول إلا النزول الذي يوصف به أجساد العباد الذي يقتضى تفريغ مكان وشغل آخر. ثم منهم من ينفي النزول عنه، ينزهه عن مثل ذلك. ومنهم من أثبت له نزولاً من هذا الجنس، يقتضى تفريغ مكان وشغل آخر، فأولئك يقولون: هذا القول باطل ، فتعين الأول ، كما يقول من يقابلهم: ذلك القول باطل فتعين الثاني. وهو يحمل كلام السلف « يفعل / ما يشاء» على أنه نزول يخلو منه العرش، ٥/٣٩٦
ومن يقابله يحمله أن المراد مفعول منفصل عن الله.

وفي الجملة، فالقائلون بأنه يخلو منه العرش طائفة قليلة من أهل الحديث. وجمهورهم على أنه لا يخلو منه العرش، وهو المأثور عن الأئمة المعروفين بالسنة، ولم ينقل عن أحد منهم بإسناد صحيح ولا ضعيف أن العرش يخلو منه، وما ذكره عبد الرحمن من تضعيف تلك الرواية عن إسحاق، فقد ذكرنا الرواية الأخرى الثابتة التي رواها ابن بطة وغيره، وذكرنا ـ أيضا ـ اللفظ الثابت عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد ، رواه الخلال وغيره.

وأما رسالة أحمد بن حنبل إلى مُسَدَّد بن مسرهد، فهي مشهورة عند أهل الحديث والسنة من أصحاب أحمد وغيرهم، تلقوها بالقبول ، وقد ذكرها أبو عبد الله بن بطة في كتاب « الإبانة»، واعتمد عليها غير واحد كالقاضي أبي يعلى وكتبها بخطه.

/ فصـــل ٥/٣٩٧

وقد تأول قوم ـ من المنتسبين إلى السنة والحديث ـ حديث النزول ـ وما كان نحوه من النصوص التي فيها فعل الرب اللازم؛ كالإتيان والمجيء ، والهبوط ونحو ذلك ، ونقلوا في ذلك قولا لمالك، ولأحمد بن حنبل حتى ذكر المتأخرون من أصحاب أحمد ـ كأبي الحسن بن الزاغوني وغيره ـ عن أحمد في تأويل هذا الباب روايتين، بخلاف غير هذا الباب ، فإنه لم ينقل عنه في تأويله نزاعاً .

وطرد ابن عقيل الروايتين في « التأويل» في غير هذه الصفة، وهو تارة يوجب التأويل، وتارة يحرمه، وتارة يسوغه.

والتأويل عنده تارة للصفات الخبرية مطلقاً ويسميها الإضافات ـ لا الصفات ـ موافقة لمن أخذ ذلك عنه من المعتزلة ، كأبي على بن الوليد ، وأبي القاسم بن التَّبَّان ـ وكانا من أصحاب أبي الحسين البصري ـ وأبو الفرج بن الجوزي مع ابن عقيل على ذلك في بعض كتبه، مثل « كف التشبيه بكف التنزيه»، ويخالفه في بعض كتبه.

٥/٣٩٨ / والأكثرون من أصحاب أحمد لم يثبتوا عنه نزاعاً في التأويل ، لا في هذه الصفات ولا في غيرها.

وأما ما حكاه أبو حامد الغزالي عن بعض الحنبلية، أن أحمد لم يتأول إلا « ثلاثة أشياء» : «الحجر الأسود يمين اللّه في الأرض»(١) ، و«قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن»(٢)، و«إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن»(٣) : فهذه الحكاية كذب على أحمد، لم ينقلها أحد عنه بإسناد ، ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه. وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبوحامد مجهول لا يعرف، لا علمه بما قال، و لا صدقه فيما قال.

وأيضاً، وقع النزاع بين أصحابه: هل اختلف اجتهاده في تأويل المجيء والإتيان، والنزول ونحو ذلك ؟ لأن حنبلاً نقل عنه في «المحنة» أنهم لما احتجوا عليه بقول النبي ﷺ :«تجيء البقرة، وآل عمران، كأنهما غَمَامَتَان، أو غَيَايَتَان، أو فرْقَان من طَيرٍ صَوَافَّ»(٤) ونحو ذلك من الحديث الذي فيه إتيان القرآن ومجيئه. وقالوا له : لا يوصف بالإتيان والمجيء إلا مخلوق؛ فعارضهم أحمد بقوله : وأحمد وغيره من أئمة السنة ـ فسروا هذا الحديث بأن المراد به مجيء ثواب البقرة وآل عمران، كما ذكر مثل ذلك من مجيء الأعمال في القبر وفي القيامة ، والمراد منه ثواب الأعمال .

والنبي ﷺ قال : «اقرؤوا البقرة وآل عمران ، فإنهما يجيئان يوم القيامة كأنهما ٥/٣٩٩ غَيَايَتان، أو غَمامتان، أو فرْقان من طير صَوَافَّ ،يحاجان/ عن أصحابهما» وهذا الحديث في الصحيح (٥): فلما أمر بقراءتهما وذكر مجيئهما يحاجان عن القارئ، علم أنه أراد بذلك قراءة القارئ لهما وهو عمله، وأخبر بمجيء عمله الذي هو التلاوة لهما في الصورة

---

(١) الديلمي في الفردوس (٢٨٠٨)، وكشف الخفاء ١/ ٣٤٨ (١١٠٩)، عن جابر.

(٢) مسلم في القدر (٢٦٥٤/ ١٧)، وأحمد ٢/ ١٧٣، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) أحمد ٢/ ٥٤١، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٥٩ :«رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير شبيب وهو ثقة»، وقال العراقي في تخريج الإحياء ١/ ١٢٣ :« أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة، ورجاله ثقات » ، وانظر :المصنوع في معرفة الحديث الموضوع لعلي القاري ص٦٦ حديث (٧٠).

(٤، ٥) مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤/ ٢٥٢)، والدارمي ٢/ ٤٥٠، وأحمد ٢/ ٢٤٩، ٢٥١. والحديث : عن أبي أمامة الباهلي إلا الدارمي فعن عبد الله بن بريدة عن أبيه.

والغياية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها. انظر : النهاية ٣/ ٤٠٣.

و «فِرْقَان» : أي قطعتان. انظر : النهاية ٣/ ٤٤٠.

و «صواف»: أي باسطات أجنحتها في الطيران. انظر: النهاية ٣/ ٣٨.

التي ذكرها، كما أخبر بمجيء غير ذلك من الأعمال.

وهذا فيه كلام مبسوط في غير هذا الموضع : هل يقلب اللّه العمل جوهراً قائماً بنفسه أم الأعراض لا تنقلب جواهر ؟وكذلك قوله :« يؤتى بالموت في صورة كَبْشٍ أَمْلَحَ»(١).

والمقصود هنا : أن النبي ﷺ لما أخبر بمجيء القرآن في هذه الصورة أراد به الإخبار عن قراءة القارئ التي هي عمله ، وذلك هو ثواب قارئ القرآن ، ليس المراد به أن نفس كلامه الذي تكلم به ، وهو قائم بنفسه يتصور صورة غمامتين. فلم يكن في هذا حجة للجهمية على ما ادعوه.

ثم إن الإمام أحمد في المحنة عارضهم بقوله تعالى :﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ** ﴾[البقرة: ٢١٠]. قال : قيل: إنما يأتي أمره هكذا نقل حنبل ، ولم ينقل هذا غيره ممن نقل مناظرته في «المحنة» كعبد اللّه بن أحمد ، وصالح بن أحمد، والمروزي وغيره، فاختلف أصحاب أحمد في ذلك.

فمنهم من قال : غلط حنبل، لم يقل أحمد هذا . وقالوا: حنبل له غلطات معروفة وهذا منها ، وهذه طريقة أبي إسحاق بن شاقلا.

٥/٤٠٠ / ومنهم من قال : بل أحمد قال ذلك على سبيل الإلزام لهم. يقول : إذا كان أخبر عن نفسه بالمجيء والإتيان ، ولم يكن ذلك دليلاً على أنه مخلوق، بل تأولتم ذلك على أنه جاء أمره ، فكذلك قولوا : جاء ثواب القرآن ، لا أنه نفسه هو الجائي ، فإن التأويل هنا ألزم ، فإن المراد هنا الإخبار بثواب قارئ القرآن، وثوابه عمل له لم يقصد به الإخبار عن نفس القرآن .

فإذا كان الرب قد أخبر بمجيء نفسه ثم تأولتم ذلك بأمره فإذا أخبر بمجيء قراءة القرآن فلأن تتأولوا ذلك بمجيء ثوابه بطريق الأولى والأحرى .

وإذا قاله لهم على سبيل الإلزام لم يلزم أن يكون موافقاً لهم عليه، وهو لا يحتاج إلى أن يلتزم هذا . فإن هذا الحديث له نظائر كثيرة في مجيء أعمال العباد، والمراد مجيء قراءة القارئ التي هي عمله، وأعمال العباد مخلوقة، وثوابها مخلوق .

ولهذا قال أحمد ، وغيره من السلف: إنه يجيء ثواب القرآن ، والثواب إنما يقع على أعمال العباد لا على صفات الرب وأفعاله.

وذهب طائفة ثالثة من أصحاب أحمد إلى أن أحمد قال هذا : ذلك الوقت ،

---

(١) البخاري في التفسير (٤٧٣٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩/ ٤٠) ، والترمذي في التفسير (٣١٥٦) عن أبي سعيد الخدري.

و « كبش أملح » : أي بياضه أكثر من سواده . انظر: النهاية ٤/ ٣٥٤.

وجعلوا هذا رواية عنه، ثم من يذهب منهم إلى التأويل ـ كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما ـ يجعلون هذه عمدتهم ؛ حتى يذكرها أبو الفرج بن الجوزي في تفسيره ، ولا يذكر من كلام أحمد والسلف ما يناقضها.

٥/٤٠١ / ولا ريب أن المنقول المتواتر عن أحمد يناقض هذه الرواية ، ويبين أنه لا يقول : إن الرب يجيء ويأتي وينزل أمره ، بل هو ينكر على من يقول ذلك.

والذين ذكروا عن أحمد في تأويل النزول ونحوه من« الأفعال» لهم قولان:

منهم من يتأول ذلك بالقصد ، كما تأول بعضهم قوله :﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ [فصلت: ١١] بالقصد، وهذا هو الذي ذكره ابن الزاغوني .

ومنهم من يتأول ذلك بمجيء أمره ونزول أمره، وهو المذكور في رواية حنبل .

وطائفة من أصحاب أحمد وغيرهم ـ كالقاضي أبي يعلى وغيره ممن يوافق أبا الحسن الأشعري ـ على أن « الفعل» هو المفعول؛ وأنه لا يقوم بذاته فعل اختياري. يقولون : معنى النزول والاستواء وغير ذلك : أفعال يفعلها الرب في المخلوقات . وهذا هو المنصوص عن أبي الحسن الأشعري وغيره، قالوا : الاستواء فعل فعله في العرش كان به مستوياً ، وهذا قول أبي الحسن بن الزاغوني.

وهؤلاء يدعون أنهم وافقوا السلف، وليس الأمر كذلك ، كما قد بسط في موضعه.

٥/٤٠٢ وكذلك ذكرت هذه رواية عن مالك ،رويت من طريق كاتبه حبيب بن/ أبي حبيب، لكن هذا كذاب باتفاق أهل العلم بالنقل ، لا يقبل أحد منهم نقله عن مالك ، ورويت من طريق أخرى ذكرها ابن عبد البر ، وفي إسنادها من لا نعرفه .

واختلف أصحاب أحمد وغيرهم ـ من المنتسبين إلى السنة والحديث ـ في النزول والإتيان، والمجيء وغير ذلك : هل يقال: إنه بحركة وانتقال ؟ أم يقال بغير حركة وانتقال ؟ أم يمسك عن الإثبات والنفي ؟ على ثلاثة أقوال، ذكرها القاضي أبو يعلى في كتاب «اختلاف الروايتين والوجهين»:

فالأول: قول أبي عبد اللّه بن حامد وغيره.

والثاني : قول أبي الحسن التميمي وأهل بيته .

والثالث: قول أبي عبد اللّه بن بطة وغيره.

ثم هؤلاء فيهم من يقف عن إثبات اللفظ مع الموافقة على المعنى ، وهو قول كثير منهم، كما ذكر ذلك أبو عمر بن عبد الرحمن وغيره.

ومنهم من يمسك عن إثبات المعنى مع اللفظ ، وهم في المعنى منهم من يتصوره مجملاً ، ومنهم من يتصوره مفصلاً ؛ إما مع الإصابة ، وإما مع الخطأ .

والذين أثبتوا هذه رواية عن أحمد هم ، وغيرهم ـ ممن ينتسب إلى السنة والحديث ـ لهم في تأويل ذلك قولان :

/ **أحدهما**: أن المراد به إثبات أمره ومجيء أمره. ٥/٤٠٣

والثاني : أن المراد بذلك عمده وقصده. وهكذا تأول هؤلاء قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت: ١١] قالوا: قصد وعمد .

وهذا تأويل طائفة من أهل العربية ،منهم أبو محمد عبد اللّه بن قتيبة،ذكر في كتاب «مختلف الحديث» له ، الذي رد فيه على أهل الكلام، الذين يطعنون في الحديث،فقال: قالوا: حديث في التشبيه يكذبه القرآن والإجماع. قالوا: رويتم أن رسول اللّه ﷺ قال : « ينزل اللّه ـ تبارك وتعالى ـ إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، فيقول :هل من داع فأستجيب له؟أو مستغفر فأغفر له ؟»(١)،و « ينزل عشية عرفة إلى أهل عرفة»(٢). و«ينزل ليلة النصف من شعبان»(٣). وهذا خلاف لقوله تعالى: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ**﴾ [الزخرف: ٨٤] .

فقد أجمع الناس أنه يكون بكل مكان، ولا يشغله شأن عن شأن.

ونحن نقول في قوله : ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ [المجادلة: ٧] أنه معهم بالعلم بما هم عليه، كما تقول لرجل وجهته إلى بلد شاسع، ووكلته بأمر من أمرك: / احذر التقصير والإغفال لشيء مما تقدمت فيه إليك، فإني معك ؛ يريد: أنه لا يخفى عليّ ٥/٤٠٤ تقصيرك أو جدك بالإشراف عليك ، والبحث عن أمورك، فإذا جاز(٤) هذا في المخلوق والذي لا يعلم الغيب، فهو في الخالق الذي يعلم الغيب أجوز.

وكذلك هو بكل مكان يراك، لا يخفى عليه شيء مما في الأماكن، هو فيها بالعلم بها والإحاطة ، فكيف يسوغ لأحد أن يقول : إنه بكل مكان على الحلول، مع قوله : ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾[طه :٥] أي: استقر،قال اللّه تعالى: ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ**﴾ [المؤمنون:٢٨] أي: استقررت ، ومع قوله :﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**

(١) سبق تخريجه ص ٣٨ . (٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٥٢ .

(٤) في المطبوعة :«جاء» وهو خطأ لدلالة ما بعده.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وكيف يصعد إليه شيء هو معه أو يرتفع إليه عمل هو عنده ؟ وكيف تعرج الملائكة والروح يوم القيامة ؟ وتعرج بمعنى: تصعد ، يقال: عرج إلى السماء: إذا صعد ، والله ذو المعارج، والمعارج: الدرج . فما هذه الدرج؟ فإلى من تؤدي الملائكة الأعمال إذا كان بالمحل الأعلى مثله بالمحل الأدنى؟

ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم، وما رُكِبَتْ عليه خلقتهم، من معرفة الخالق، لعلموا أن اللّه هو العلي وهو الأعلى ، وبالمكان الرفيع ، وأن القلوب عند الذكر تسمو نحوه، والأيدي ترتفع بالدعاء إليه. ومن العلو يرجى الفرج، ويتوقع النصر والرزق.

٥/٤٠٥ / وهناك الكرسي والعرش ، والحجب والملائكة . يقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:١٩ ، ٢٠]. وقال في الشهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩] قيل لهم: شهداء؛ لأنهم يشهدون ملكوت اللّه ، واحدهم شهيد، كما يقال : عليم وعلماء ، وكفيل وكفلاء.

وقال عز وجل : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾[الأنبياء : ١٧] أي: لاتخذنا ذلك عندنا لا عندكم؛ لأن زوجة الرجل وولده يكونان عنده بحضرته لا عند غيره.

والأمم كلها ـ عجمها وعربها ـ تقول : إن اللّه ـ عز وجل ـ في السماء ، ما تركت على فطرتها ، ولم تنقل عن ذلك بالتعليم .

وفي الحديث: أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ بأمَة أعجمية للعتق، فقال لها رسول اللّه ﷺ : « أين اللّه؟» قالت : في السماء .قال : « من أنا ؟» قالت: أنت رسول اللّه، فقال: «هي مؤمنة» وأمره بعتقها[1].

وقال أمية بن أبي الصَّلْت :

مجـدوا اللّـه فهو للمجـد أهـل ... ربنا في السماء أمسى كبـيراً

بالبناء الأعلى الـذي سبـق النـا ... س وسوى فوق السماء سريرا

شَرْجَعاً مـا يناله بصـر العيـ ... ـن ترى دونه الملائك صُـورًا

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣ .

/ وصُورًا جمع أصْوَر ، وهو المائل العنق ، و هكذا قيل في حملة العرش صور ، وكل من حمل شيئاً ثقيلاً على كاهله أو على منكبه، لم يجد بداً من أن يميل عنقه. ٥/٤٠٦

وفي « الإنجيل»: أن المسيح ـ عليه السلام ـ قال : «لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسي اللّه. وقال للحواريين : إن أنتم غفرتم للناس فإن أباكم ـ الذي في السماء ـ يغفر لكم كلكم، انظروا إلى طير السماء، فإنهن لا يزرعن ، ولا يحصدن ، ولا يجمعن في الأهواء، ، وأبوكم الذي في السماء هو الذي يرزقهم، أفلستم أفضل منهن؟» ومثل هذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب.

قال ابن قتيبة: وأما قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ [الزخرف: ٨٤] ، فليس في ذلك ما يدل على الحلول بهما، وإنما أراد أنه إله السماء ومن فيها وإله الأرض ومن فيها. ومثل هذا من الكلام قولك: هو بخراسان أمير، وبمصر أمير، فالإمارة تجتمع له فيهما، وهو حال بأحدهما أو بغيرهما . هذا واضح لا يخفى .

فإن قال لنا : كيف النزول منه جل وعز؟ قلنا: لا نحكم على النزول منه بشيء، ولكنا نبين كيف النزول منا، وما تحتمله اللغة من هذا اللفظ، واللّه أعلم بما أراد .

/ والنزول منا يكون بمعنيين: ٥/٤٠٧

أحدهما: الانتقال من مكان إلى مكان، كنزولك من الجبل إلى الحضيض، ومن السطح إلى الدار.

والمعنى الآخر : إقبالك إلى الشيء بالإرادة والنية. كذلك الهبوط والارتفاع والبلوغ والمصير، وأشباه هذا من الكلام.

ومثال ذلك : إن سألك سائل عن محل قوم من الأعراب ـ وهو لا يريد المصير إليهم ـ فتقول له : إذا صرت إلى جبل كذا فانزل منه وخذ يميناً ، وإذا صرت إلى وادي كذا فاهبط فيه ثم خذ شمالاً ، وإذا سرت إلى أرض كذا فَاعْلُ هضبة هناك حتى تشرف عليهم ، وأنت لا تريد في شيء مما تقوله افعله ببدنك، إنما تريد افعله بنيتك وقصدك.

وقد يقول القائل : بلغت إلى الأحزاب تشتمهم، وصرت إلى الخلفاء تطعن عليهم، وجئت إلى العلم تزهد فيه، ونزلت عن معالي الأخلاق إلى الدناءة، ليس يراد في شيء من هذا انتقال الجسم ، وإنما يراد به القصد إلى الشيء بالإرادة والعزم والنية، وكذلك قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾[النحل : ١٢٨] لا يراد به أنه معهم بالحلول ؛ ولكن بالنصر والتوفيق والحياطة .

وكذلك قوله عز وجل :« من تَقَرَّب مني شبراً تَقَرَّبت منه ذِراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَةً»(١).

٥/٤٠٨ / قال : وثنا عن عبد المنعم، عن أبيه، عن وهب بن مُنَبِّه؛أن موسى ـ عليه السلام ـ لما نودي من الشجرة ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾[طه: ١٢] أسرع الإجابة ، وتابع التلبية، وما كان ذلك إلا استئناساً منه بالصوت، وسكوناً إليه.

وقال : إني أسمع صوتك،وأحس حسك،ولا أدري مكانك، فأين أنت؟ قال:« أنا فوقك ، وأمامك وخلفك، ومحيط بك وأقرب إليك من نفسك» يريد: إني أعلم بك منك؛لأنك إذا نظرت إلى ما بين يديك خفي عليك ما وراءك،وإذا سموت بطرفك إلى ماهو فوقك ذهب عنك علم ما تحتك،وأنا لا يخفى عليّ خافية منك في جميع أحوالك.

ونحو هذا قول رابعة العابدة العدوية قالت : شَغَلُوا قلوبهم عن اللّه بحُبِّ الدنيا، ولو تركوها لجالت في الملكوت، ثم رجعت إليهم بطرف الفائدة ، ولم ترد أن أبدانهم وقلوبهم تجول في السماء بالحلول، ولكن تجول هناك بالفكر والقصد والإقبال .

وكذلك قول أبي ممندية الأعرابي قال : اطلعت في النار فرأيت الشعراء لهم كظيظ، يعني التقاء، وأنشد فيه:

جياد بها صرعى لهن كظيظ

٥/٤٠٩ ولو قال قائل في قول رسول اللّه ﷺ : « اطَّلَعْتُ في الجنة،/ فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»(٢) : إن اطلاعه فيها كان بالفكرة والإقبال كان حسناً.

قلت : وتأويل المجيء والإتيان والنزول ونحو ذلك ـ بمعنى القصد والإرادة ونحو ذلك ـ هو قول طائفة . وتأولوا ذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [البقرة:٢٩] وجعل ابن الزاغوني وغيره ذلك : هو إحدى الروايتين عن أحمد .

والصواب : أن جميع هذه التأويلات مبتدعة، لم يقل أحد من الصحابة شيئاً منها، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان، وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث ـ أحمد بن حنبل ، وغيره من أئمة السنة.

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٣ .

(٢) أحمد ٤/ ٤٤٣ عن عمران بن حصين، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٦٤: «رواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح غير الضحاك بن يسار، وقد وثقه ابن حبان».

ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمة، وتكون إما غلطاً أو محرفة، كما تقدم من أن قول الأوزاعي وغيره من أئمة السلف في النزول «يفعل الله ما يشاء» فسره بعضهم أن النزول مفعول مخلوق، منفصل عن اللّه، وأنهم أرادوا بقولهم: «يفعل الله ما يشاء» هذا المعنى وليس الأمر كذلك، كما تقدمت الإشارة إليه.

وآخرون ـ كالقاضي أبي يعلى في «إبطال التأويل» ـ قالوا: لم يرد الأوزاعي أن النزول من صفات الفعل، وإنما أراد بهذا الكلام بقوله: ﴿يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ وشبهوا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ / عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم ٥/٤١٠
بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ ٢٨]، فزعموا أن قوله ـ سبحانه ـ ليس تنزيها له عن اتخاذ الولد ـ بناء على أصلهم الفاسد، وهو أن الرب لا ينزه عن فعل من الأفعال ـ بل يجوز عليه كل ما يقدر عليه.

وكذلك جعلوا قول الأوزاعي وغيره: أن النزول ليس بفعل يشاؤه اللّه؛ لأنه عندهم من صفات الذات لا من صفات الفعل، بناء على أصلهم، وأن الأفعال الاختيارية لا تقوم بذات اللّه؛ فلو كان صفة فعل لزم ألا يقوم بذاته، بل يكون منفصلاً عنه.

وهؤلاء يقولون: النزول من صفات الذات، ومع هذا فهو عندهم أزلي كما يقولون مثل ذلك في الاستواء، والمجيء، والإتيان، والرضى، والغضب، والفرح، والضحك، وسائر ذلك: إن هذا جميعه صفات ذاتية للّه، وإنها قديمة أزلية، لا تتعلق بمشيئته واختياره؛ بناء على أصلهم الذي وافقوا فيه ابن كلاب، وهو أن الرب لا يقوم بذاته ما يتعلق بمشيئته واختياره، بل من هؤلاء من يقول: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا يقوم به فعل يحدث بمشيئته واختياره.

بل من هؤلاء من يقول: إن الفعل قديم أزلي، وإنه مع ذلك يتعلق بمشيئته وقدرته، وأكثر العقلاء يقولون: فساد هذا معلوم بضرورة العقل؛ كما قالوا / مثل ذلك في قول ٥/٤١١
من قال من المتفلسفة: إن الفلك قديم أزلي، وأنه أبدعه بقدرته ومشيئته.

وجمهور العقلاء يقولون: الشيء المعين من الأعيان والصفات إذا كان حاصلاً بمشيئة الرب وقدرته لم يكن أزليا.

فلما كان من أصل ابن كلاب ومن وافقه، كالحارث المحاسبي، وأبي العباس القلانسي، وأبي الحسن الأشعري، والقضاة أبي بكر بن الطيب، وأبي يعلى بن الفراء،

وأبي جعفر السماني ، وأبي الوليد الباجي وغيرهم من الأعيان ، كأبي المعالي الجويني وأمثاله ؛وأبي الوفاء بن عقيل ،وأبي الحسن بن الزاغوني وأمثالهما: أن الرب لا يقوم به ما يكون بمشيئته وقدرته، ويعبرون عن هذا بأنه لا تحله الحوادث ،ووافقوا في ذلك للجهم ابن صفوان ، وأتباعه من الجهمية والمعتزلة ، صاروا فيما ورد في الكتاب والسنة من صفات الرب ، على أحد قولين :

إما أن يجعلوها كلها مخلوقات منفصلة عنه. فيقولون : كلام اللّه مخلوق بائن عنه، لا يقوم به كلام. وكذلك رضاه، وغضبه، وفرحه، ومجيئه وإتيانه، ونزوله وغير ذلك ، هو مخلوق منفصل عنه، لا يتصف الرب بشيء يقوم به عندهم.

وإذا قالوا: هذه الأمور من صفات الفعل ، فمعناه: أنها منفصلة عن اللّه بائنة، وهي مضافة إليه، لا أنها صفات قائمة به .

٥/٤١٢ / ولهذا يقول كثير منهم : إن هذه آيات الإضافات وأحاديث الإضافات، وينكرون على من يقول: آيات الصفات وأحاديث الصفات.

وإما أن يجعلوا جميع هذه المعاني قديمة أزلية ، ويقولون: نزوله ومجيئه ، وإتيانه وفرحه، وغضبه ورضاه، ونحو ذلك : قديم أزلي، كما يقولون: إن القرآن قديم أزلي.

ثم منهم من يجعله معنى واحداً ، ومنهم من يجعله حروفاً ، أو حروفاً وأصواتاً قديمة أزلية، مع كونه مرتباً في نفسه . ويقولون : فرق بين ترتيب وجوده ، وترتيب ماهيته، كما قد بسطنا الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع على هذه الأقوال وقائليها، وأدلتها السمعية والعقلية في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه ليس شيء من هذه الأقوال قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا قول أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة ـ أئمة السنة والجماعة وأهل الحديث ـ كالأوزاعي، ومالك بن أنس، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وعبد اللّه بن المبارك، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه، وأمثالهم ـ بل أقوال السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ومن سلك سبيلهم من أئمة الدين، وعلماء المسلمين ، موجودة في الكتب التي ينقل فيها أقوالهم بألفاظها، بالأسانيد المعروفة عنهم .

٥/٤١٣ كما يوجد ذلك في كتب كثيرة، مثل كتاب «السنة» و«الرد على الجهمية» / لمحمد بن عبد اللّه الجعفي، شيخ البخاري؛ ولأبي داود السجستاني،ولعبد اللّه بن أحمد بن حنبل، ولأبي بكر الأثرم، ولحنبل بن إسحاق، ولحرب الكرماني،ولعثمان بن سعيد الدارمي ، ولنعيم بن حماد الخزاعي ، ولأبي بكر الخلال ،ولأبي بكر بن خزيمة،ولعبد الرحمن بن

أبي حاتم، ولأبي القاسم الطبراني ، ولأبي الشيخ الأصبهاني ، ولأبي عبد الله بن منده، ولأبي عمرو الطلمنكي، وأبي عمر بن عبد البر.

وفي كتب التفسير المسندة قطعة كبيرة من ذلك ، مثل تفسير عبد الرزاق ، وعبد بن حميد، ودُحَيْم وسُنَيْد ، وابن جرير الطبري، وأبي بكر بن المنذر، وتفسير عبد الرحمن ابن أبي حاتم، وغير ذلك من كتب التفسير، التي ينقل فيها ألفاظ الصحابة والتابعين ، في معاني القرآن بالأسانيد المعروفة.

فإن معرفة مراد الرسول ومراد الصحابة هو أصل العلم، وينبوع الهدى، وإلا فكثير ممن يذكر مذهب السلف ويحكيه لا يكون له خبرة بشيء من هذا الباب ، كما يظنون أن مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها . أنه لا يفهم أحد معانيها؛ لا الرسول ولا غيره، ويظنون أن هذا معنى قوله : ﴿ وَمَا[1] يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:٧] مع نصرهم للوقف على ذلك؛ فيجعلون مضمون مذهب السلف أن الرسول بلغ قرآناً لا يفهم معناه، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها ،وأن جبريل كذلك، وأن الصحابة والتابعين كذلك.

/ وهذا ضلال عظيم ، وهو أحد أنواع الضلال في كلام الله والرسول ﷺ ، ظن ٥/٤١٤
أهل التخييل ، وظن أهل التحريف والتبديل ، وظن أهل التجهيل . وهذا مما بسط الكلام عليه في مواضع ، والله يهدينا وسائر إخواننا إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

والمقصود هنا الكلام على من يقول: ينزل ولا يخلو منه العرش ، وإن أهل الحديث في هذا على ثلاثة أقوال :

منهم من ينكر أن يقال: يخلو، أو لا يخلو، كما يقول ذلك الحافظ عبد الغني وغيره.

ومنهم من يقول : بل يخلو منه العرش، وقد صنف عبد الرحمن بن منده مصنفاً في الإنكار على من قال : لا يخلو من العرش ، أو لا يخلو منه العرش ـ كما تقدم بعض كلامه .

وكثير من أهل الحديث يتوقف عن أن يقول: يخلو أو لا يخلو. وجمهورهم على أنه لا يخلو منه العرش . وكثير منهم يتوقف عن أن يقال : يخلو أو لا يخلو؛ لشكهم في ذلك، وأنهم لم يتبين لهم جواب أحد الأمرين ، وإما مع كون الواحد منهم قد ترجح

---

(١) في المطبوعة :«لا» ، والصواب ما أثبتناه.

٥/٤١٥ عنده أحد الأمرين لكن يمسك في ذلك؛ لكونه ليس في الحديث / ولما يخاف من الإنكار عليه . وأما الجزم بخلو العرش فلم يبلغنا إلا عن طائفة قليلة منهم.

والقول الثالث ـ وهو الصواب وهو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها ـ :إنه لا يزال فوق العرش ، ولا يخلو العرش منه، مع دنوه ونزوله إلى السماء الدنيا، ولا يكون العرش فوقه. وكذلك يوم القيامة كما جاء به الكتاب والسنة ، وليس نزوله كنزول أجسام بني آدم من السطح إلى الأرض، بحيث يبقى السقف فوقهم ،بل اللّه منزه عن ذلك ، و سنتكلم عليه إن شاء اللّه، وهذه المسألة تحتاج إلى بسط.

وأما قول النافي : إنما ينزل أمره ورحمته، فهذا غلط لوجوه، وقد تقدم التنبيه على ذلك على تقدير كون النفاة من المثبتة للعلو . وأما إذا كان من النفاة للعلو والنزول جميعا، فيجاب أيضا بوجوه:

أحدها :أن الأمر والرحمة إما أن يراد بها أعيان قائمة بنفسها كالملائكة، وإما أن يراد بها صفات وأعراض . فإن أريد الأول ، فالملائكة تنزل إلى الأرض في كل وقت، وهذا خص النزول بجوف الليل ، وجعل منتهاه سماء الدنيا، والملائكة لا يختص نزولهم لا بهذا الزمان ولا بهذا المكان. وإن أريد صفات وأعراض مثل ما يحصل في قلوب العابدين في وقت السحر من الرقة والتضرع وحلاوة العبادة ونحو ذلك ، فهذا حاصل في الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا.

٥/٤١٦ / **الثاني** : أن في الحديث الصحيح : أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يقول: «لا أسأل عن عبادي غيري» [١]، ومعلوم أن هذا كلام اللّه الذي لا يقوله غيره.

الثالث: أنه قال : « ينزل إلى السماء الدنيا ، فيقول : من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يَطْلُعَ الفجر»[٢]، ومعلوم أنه لا يجيب الدعاء ويغفر الذنوب ويعطي كل سائل سؤله إلا اللّه، وأمره ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك .

الرابع: نزول أمره ورحمته لا تكون إلا منه ،وحينئذ فهذا يقتضي أن يكون هو فوق العالم ، فنفس تأويله يبطل مذهبه ؛ ولهذا قال بعض النفاة لبعض المثبتين : ينزل أمره ورحمته؛ فقال له المثبت : فممن ينزل ؟! ما عندك فوق شيء ؛ فلا ينزل منه لا أمر، ولا رحمة ولا غير ذلك ؟! فبهت النافي وكان كبيراً فيهم.

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٨ .

الخامس: أنه قد روي في عدة أحاديث: « ثم يعرج » وفي لفظ « ثم يصعد ».

السادس : أنه إذا قدر أن النازل بعض الملائكة ، وأنه ينادي عن اللّه كما حرف بعضهم لفظ الحديث فرواه « ينزل» من الفعل الرباعي المتعدي أنه يأمر منادياً ينادي ؛ لكان الواجب أن يقول : من يدعو اللّه فيستجيب له ؟ من يسأله فيعطيه، من يستغفره فيغفر له؟ كما ثبت في «الصحيحين» ، و«موطأ / مالك» و « مسند أحمد بن حنبل » ، وغير ٥/٤١٧
ذلك عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أحب اللّه العبد نادى في السماء: ياجبريل، إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل : إن اللّه يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض» (١) ، وقال في البغض مثل ذلك.

فقد بين النبي ﷺ الفرق بين نداء اللّه ونداء جبريل ، فقال في نداء اللّه: «يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه» ، وقال في نداء جبريل :« إن اللّه يحب فلاناً فأحبوه»، وهذا موجب اللغة التي بها خوطبنا، بل وموجب جميع اللغات، فإن ضمير المتكلم لا يقوله إلا المتكلم. فأما من أخبر عن غيره فإنما يأتي باسمه الظاهر وضمائر الغيبة. وهم يمثلون نداء اللّه بنداء السلطان ويقولون: قد يقال : نادى السلطان ، إذا أمر غيره بالنداء ـ وهذا كما قالت الجهمية المحضة في تكليم اللّه لموسى : إنه أمر غيره فكلمه ، لم يكن هو المتكلم .

فيقال لهم : إن السلطان إذا أمر غيره أن ينادي أو يكلم غيره أو يخاطبه ؛ فإن المنادي ينادي : معاشر الناس، أمر السلطان بكذا، أو رسم بكذا، لا يقول: إني أنا أمرتكم بذلك.

ولو تكلم بذلك لأهانه الناس ولقالوا : من أنت حتى تأمرنا ؟ ! والمنادي كل ليلة يقول : «من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له ؟» كما في ندائه / لموسى عليه السلام: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ ٥/٤١٨
[طه: ١٤] ، وقال : ﴿**إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [القصص: ٣٠] . ومعلوم أن اللّه لو أمر ملكاً أن ينادي كل ليلة أو ينادي موسى لم يقل الملك: « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» ولا يقول : لا أسأل عن عبادي غيري.

وأما قول المعترض : إن الليل يختلف باختلاف البلدان والفصول في التقدم والتأخر والطول والقصر.

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٢ .

فيقال له : الجواب عن هذا كالجواب عن قولك : هل يخلو منه العرش، أو لا يخلو منه ؟ وذلك أنه إذا جاز أنه ينزل ولا يخلو منه العرش، فتقدم النزول وتأخره وطوله وقصره كذلك ، بناء على أن هذا نزول لا يقاس بنزول الخلق . وجماع الأمر أن الجواب عن مثل هذا السؤال يكون بأنواع:

أحدها: أن يبين أن المنازع النافي يلزمه من اللوازم ما هو أبعد عن المعقول الذي يعترف به مما يلزم المثبت ، فإن كان مما يحتج به من المعقول حجة صحيحة، لزم بطلان النفي ، فيلزم الإثبات ؛ إذ الحق لا يخلو عن النقيضين. وإن كان باطلاً ، لم يبطل به الإثبات ، فلا يعارض ما ثبت بالفطرة العقلية والشرعة النبوية ، وهذا كما إذا قال : لو كان فوق العرش لكان جسماً، وذلك ممتنع، فيقال له : للناس هنا ثلاثة أقوال :

٥/٤١٩ / منهم من يقول : هو فوق العرش وليس بجسم .

ومنهم من يقول: هو فوق العرش وهو جسم.

ومنهم من يقول : هو فوق العرش ولا أقول :هو جسم ، ولا ليس بجسم ، ثم من هؤلاء من يسكت عن هذا النفي والإثبات؛ لأن كليهما بدعة في الشرع .

ومنهم من يستفصل عن مسمى الجسم، فإن فسر بما يجب تنزيه الرب عنه نفاه وبين أن علوه على العرش لا يستلزم ذلك ، وإن فسر بما يتصف الرب به لم ينف ذلك المعنى. فالجسم في اللغة هو البدن، واللّه منزّه عن ذلك، وأهل الكلام قد يريدون بالجسم ما هو مركب من الجواهر المفردة أو من المادة والصورة . وكثير منهم ينازع في كون الأجسام المخلوقة مركبة من هذا وهذا ، بل أكثر العقلاء من بنى آدم عندهم أن السموات ليست مركبة ، لا من الجواهر المفردة ، ولا من المادة والصورة ، فكيف يكون رب العالمين مركباً من هذا وهذا ؟ فمن قال: إن اللّه جسم ، وأراد بالجسم هذا المركب، فهو مخطئ في ذلك. ومن قصد نفي هذا التركيب عن اللّه ، فقد أصاب في نفيه عن اللّه ، لكن ينبغي أن يذكر عبارة تبين مقصوده.

ولفظ التركيب قد يراد به أنه ركبه مركب ، أو أنه كانت أجزاؤه متفرقة فاجتمع، أو أنه يقبل التفريق ، واللّه منزه عن ذلك كله .

٥/٤٢٠ / وقد يراد بلفظ الجسم و المتحيز ما يشار إليه بمعنى أن الأيدي ترفع إليه في الدعاء، وأنه يقال: هو هنا وهناك ،ويراد به القائم بنفسه ، و يراد به الموجود. ولا ريب أن اللّه موجود قائم بنفسه، وهو عند السلف وأهل السنة ترفع الأيدي إليه في الدعاء ،وهو فوق العرش. فإذا سمى المسمى ما يتصف بهذه المعاني جسماً ، كان كتسمية الآخر ما يتصف

بأنه حي عالم قادر جسمًا، وتسمية الآخر ما له حياة وعلم وقدرة جسمًا.

ومعلوم أن هؤلاء كلهم ينازعون في ثلاث مقامات :

أحدها: أن تسمية ما يتصف بهذه الصفات بالجسم بدعة في الشرع واللغة ، فلا أهل اللغة يسمون هذا جسماً، بل الجسم عندهم هو البدن، كما نقله غير واحد من أئمة اللغة، وهو مشهور في كتب اللغة ، قال الجوهري في « صحاحه» المشهور: قال أبو زيد: الجسم : الجسد، وكذلك الجسمان والجثمان ، وقال الأصمعي : الجسم والجثمان: الجسد ، والجثمان الشخص ، قال : والأجسم الأضخم بالبدن، وقال ابن السكيت: تجسمت الأمر أي: ركبت أجسمه ، وجسيمه أي: معظمه، قال : وكذلك تجسمت الرجل والجبل، أي ركبت أجسمه.

وقد ذكر الله لفظ الجسم في موضعين من القرآن ، في قوله تعالى :﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ [البقرة : ٢٤٧]، وفي قوله تعالى:﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ**﴾ [المنافقون: ٤]، والجسم قد يفسر بالصفة القائمة بالمحل وهو القدر والغلظ، كما يقال: هذا الثوب / له جسم ، وهذا ليس له جسم أي: له غلظ وضخامة بخلاف هذا ، وقد ٥/٤٢١
يراد بالجسم نفس الغلظ والضخم.

وقد ادعى طوائف من أهل الكلام النفاة أن الجسم في اللغة هو المؤلف المركب ، وأن استعمالهم لفظ الجسم في كل ما يشار إليه موافق للغة، قالوا : لأن كل ما يشار إليه ، فإنه يتميز منه شيء عن شيء، وكل ما كان كذلك ؛ فهو مركب من الجواهر المنفردة التى كل واحد منها جزء لا يتجزأ ولا يتميز منه جانب عن جانب ، أو من المادة والصورة اللذين هما جوهران عقليان، كما يقول ذلك بعض الفلاسفة.

قالوا: وإذا كان هذا مركباً مؤلفاً ، فالجسم في لغة العرب هو المؤلف المركب، بدليل أنهم يقولون: رجل جسيم ، وزيد أجسم من عمرو، إذا كثر ذهابه في الجهات، وليس يقصدون بالمبالغة في قولهم:أجسم وجسيم إلا كثرة الأجزاء المنضمة والتأليف ؛ لأنهم لا يقولون : أجسم فيمن كثرت علومه وقدره وسائر تصرفاته وصفاته غير الاجتماع ، حتى إذا كثر الإجتماع فيه بتزايد أجزائه قيل: أجسم،ورجل جسيم، فدل ذلك على أن قولهم: جسم مفيد للتأليف.

فهذا أصل قول هؤلاء النفاة،وهومبني على أصلين:سمعي لغوي،ونظري عقلي فطري.

أما السمعي اللغوي فقولهم:إن أهل اللغة يطلقون لفظ الجسم على المركب/ واستدلوا ٥/٤٢٢

عليه بقوله : هو أجسم إذا كان أغلظ وأكثر ذهاباً في الجهات ، وأن هذا يقتضى أنهم اعتبروا كثرة الأجزاء .

فيقال : أما المقدمة الأولى وهو : إن أهل اللغة يسمون كل ما كان له مقدار بحيث يكون أكبر من غيره أو أصغر جسمًا ، فهذا لا يوجد في لغة العرب البتة، ولا يمكن أحد أن ينقل عنهم أنهم يسمون الهواء الذي بين السماء والأرض جسمًا، ولا يسمون روح الإنسان جسماً، بل من المشهور أنهم يفرقون بين الجسم والروح؛ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ [المنافقون: ٤] يعني أبدانهم دون أرواحهم الباطنة.

وقد ذكر نقلة اللغة: أن الجسم عندهم هو الجسد . ومن المعروف في اللغة أن هذا اللفظ يتضمن الغلظ والكثافة ، فلا يسمون الأشياء القائمة بنفسها إذا كانت لطيفة كالهواء وروح الإنسان ، وإن كان لذلك مقدار يكون به بعضه أكبر من بعض ، لكن لا يسمى في اللغة ذلك جسمًا، ولا يقولون في زيادة أحدهما على الآخر : هذا أجسم من هذا ،ولا يقولون: هذا المكان الواسع أجسم من هذا المكان الضيق ،وإن كان أكبر منه، وإن كانت أجزاؤه زائدة على أجزائه عند من يقول بأنه مركب من الأجزاء .

فليس كل ما هو مركب عندهم من الأجزاء يسمى جسمًا ولا يوجد في الكلام قبض جسمه، ولا صعد بجسمه إلى السماء ،ولا أن الله يقبض/ أجسامنا حيث يشاء، ويردها ٥/٤٢٣
حيث شاء،إنما يسمون ذلك روحاً،ويفرقون بين مسمى الروح ومسمى الجسم كما يفرقون بين البدن والروح ، وكما يفرقون بين الجسد والروح، فلا يطلقون لفظ الجسم على الهواء، فلفظ الجسم عندهم يشبه لفظ الجسد، قال الجوهري : الجسد البدن، تقول فيه: تجسد كما تقول في الجسم: تجسم، كما تقدم نقله عن أئمة اللغة أن الجسم هو الجسد .

فعلم أن هذين اللفظين مترادفان ، أو قريبان من الترادف ؛ ولهذا يقولون: لهذا الثوب جسد، كما يقولون له : جسم إذا كان غليظاً ثخيناً صفيقًا ، وتقول العلماء: النجاسة قد تكون مستجسدة كالدم والميتة ، وقد لا تكون مستجسدة كالرطوبة ، ويسمون الدم جسداً كما قال النابغة:

فلا لعمر الذي قد زرته حججاً وما أريق على الأنصاب من جسد

كما يقولون : له :جسم، فبطل ما ذكروه عن اللغة؛ أن كل ما يتميز منه شيء عن شيء يسمونه جسماً.

المقدمة الثانية : أنه لو سلم ذلك ،فقولهم: إن هذا «جسم» يطلقونه عند تزايد الأجزاء،هو مبني على أن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة، وهذا لو قدر أنه صحيح،

فأهل اللغة لم يعتبروه،ولا قال أحد منهم ذلك، فعلم أنهم إنما لحظوا غلظه وكثافته.وأما كونهم اعتبروا كثرة الأجزاء وقلتها؛ فهذا لا يتصوره /أكثر عقلاء بني آدم؛ ٥/٤٢٤
فضلاً عن أن ينقل عن أهل اللغة قاطبة أنهم أرادوا ذلك بقولهم: جسيم وأجسم.والمعنى المشهور في اللغة لا يكون مسماه ما لا يفهمه إلا بعض الناس ، وإثبات الجواهر المنفردة أمر خص به بعض الناس ، فلا يكون مسمى الجسم في اللغة ما لا يعرفه إلا بعض الناس ، وهو المركب من ذلك .

وأما الأصل الثاني العقلي ،فقولهم:إن كل ما يشار إليه بأنه هنا أوهناك،فإنه مركب من الجواهر المنفردة ، أو من المادة والصورة. وهذا بحث عقلي ، وأكثر عقلاء بني آدم ـ من أهل الكلام وغير أهل الكلام ـ ينكرون أن يكون ذلك مركباً من الجواهر المنفردة، أو من المادة والصورة،وإنكار ذلك قول ابن كلاب وأتباعه من الكلابية ـ وهو إمام الأشعري في مسائل الصفات ـ وهو قول الهشامية، والنجارية ، والضرارية، وبعض الكرامية .

وهؤلاء الذين أثبتوا «الجوهر الفرد» زعموا أنا لا نعلم : لا بالحس ولا بالضرورة أن اللّه أبدع شيئاً قائماً بنفسه ، وأن جميع ما نشهده مخلوق ـ من السحاب والمطر والحيوان والنبات والمعدن وبني آدم وغير بني آدم ـ فإن ما فيه أنه أحدث أكواناً في الجواهر المنفردة كالجمع والتفريق والحركة والسكون، وأنكر هؤلاء أن يكون اللّه لما خلقنا أحدث أبداننا قائمة بأنفسها ،أو شجراً وثمراً أو شيئاً آخر قائماً بنفسه ،وإنما أحدث عندهم أعراضاً . وأما الجواهر المنفردة فلم تزل موجودة . ثم من يقول : إنها محدثة ، منهم من يقول : إنهم علموا حدوثها بأنها لم تخل من الحوادث،وما لم يخل من الحوادث، فهو حادث.

/قالوا : فبهذا « الدليل العقلي» وأمثاله، علمنا أنه ما أبدع شيئاً قائماً بنفسه؛ لأنا ٥/٤٢٥
نشهده من حلول الحوادث المشهودة كالسحاب والمطر . وهؤلاء في « مُعاد الأبدان» يتكلمون فيه على هذا الأصل : فمنهم من يقول: يفرق الأجزاء ثم يجمعها، ومنهم من يقول : يعدمها ثم يعيدها ، واضطربوا هاهنا فيما إذا أكل حيوان حيواناً فكيف يعاد ؟ وادعى بعضهم أن اللّه يعدم جميع أجزاء العالم ، ومنهم من يقول : هذا ممكن لا نعلم ثبوته ولا انتفاءه.

ثم «المعاد» عندهم يفتقر إلى أن يبتدئ هذه الجواهر ، والجهم بن صفوان منهم يقول بعدمها بعد ذلك،ويقول بفناء الجنة والنار لامتناع دوام الحوادث عنده في المستقبل كامتناع دوامها في الماضي ، وأبو الهذيل العلاف يقول بعدم الحركات. وهؤلاء ينكرون استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ، أو انقلاب جنس إلى جنس ،بل الجواهر عندهم متماثلة ، والأجسام مركبة منها، وما ثم إلا تغيير التركيب فقط، لا انقلاب ولا استحالة .

ولا ريب أن جمهور العقلاء ـ من المسلمين وغيرهم ـ على إنكار هذا ، والأطباء والفقهاء ممن يقول باستحالة الأجسام بعضها إلى بعض كما هو موجود في كتبهم ، والأجسام عندهم ليست متماثلة ، بل الماء يخالف الهواء، والهواء يخالف التراب وأبدان الناس تخالف النبات؛ ولهذا صارت النفاة إذا أثبت أحد شيئاً من الصفات، كان ذلك مستلزماً لأن يكون الموصوف عندهم جسمًا ـ وعندهم الأجسام متماثلة ـ فصاروا يسمونه
٥/٤٢٦ مشبهاً بهذه المقدمات التي تُلزمهم مثل/ ما ألزموه لغيرهم ، وهي متناقضة لا يتصور أن ينتظم منها قول صحيح ، وكلها مقدمات ممنوعة عند جماهير العقلاء ، وفيها من تغيير اللغة والمعقول ما دخل بسبب هذه الأغاليط والشبهات حتى يبقى الرجل حائراً لا يهون عليه إبطال عقله ودينه، والخروج عن الإيمان والقرآن ؛ فإن ذلك كله متطابق على إثبات الصفات .

ولا يهون عليه التزام ما يلزمونه من كون الرب مركباً من الأجزاء ومماثلاً للمخلوقات؛ فإنه يعلم أيضا بطلان هذا ، وأن الرب ـ عز وجل ـ يجب تنزيهه عن هذا ، فإنه ـ سبحانه ـ أحد صمد، و «الأحد» ينفي التمثيل ، و«الصمد» ينفي أن يكون قابلاً للتفريق والتقسيم والبعضية ـ سبحانه وتعالى ـ فضلاً عن كونه مؤلفاً مركباً ؛ ركب وألف من الأجزاء ، فيفهمون من يخاطبون أن ما وصف به الرب نفسه لا يعقل إلا في بدن مثل بدن الإنسان، بل وقد يصرحون بذلك ويقولون : الكلام لا يكون إلا من صورة مركبة مثل فم الإنسان ونحو ذلك مما يدعونه.

وإذا قال النفاة لهم : متى قلتم إنه يرى ؟ لزم أن يكون مركباً مؤلفاً ؛ لأن المرئي لا يكون إلا بجهة من الرائي ، وما يكون بجهة من الرائي لا يكون إلا جسماً ، والجسم مؤلف مركب من الأجزاء، أو قالوا: إن الرب إذا تكلم بالقرآن أوغيره من الكلام، لزم ذلك، وإذا كان فوق العرش ، لزم ذلك ، وصار المسلم العارف بما قاله الرسول ﷺ يعلم أن اللّه يرى في الآخرة؛لما تواتر عنده من الأخبار عن الرسول ﷺ بذلك،
٥/٤٢٧ /وكذلك يعلم أن اللّه تكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، ويعلم أن اللّه فوق العرش بما تواتر عنده عن الرسول بما يدل على ذلك، مع ما يوافق ذلك من القضايا الفطرية التي خلق اللّه عليها عباده.

وإذا قالوا له : هذا يستلزم أن يكون اللّه مركباً من الأجزاء المنفردة، والمركب لابد له مِن مركب ؛ فيلزم أن يكون اللّه محدثاً ؛ إذ المركب يفتقر إلى أجزائه، وأجزاؤه تكون غيره، وما افتقر إلى غيره؛ لم يكن غنياً واجب الوجود بنفسه ـ حيروه وشككوه إن لم

يجعلوه مكذبًا لما جاء به الرسول، مرتداً عن بعض ما كان عليه من الإيمان، مع أن تشككه وحيرته تقدح في إيمانه ودينه وعلمه وعقله.

فيقال لهم : أما كون الرب ـ سبحانه وتعالى ـ مركباً ركبه غيره، فهذا من أظهر الأمور فساداً ، وهذا معلوم فساده بضرورة العقل . ومن قال هذا ، فهو من أكفر الناس وأجهلهم وأشدهم محاربة للّه، وليس في الطوائف المشهورة من يقول بهذا .

وكذلك إذا قيل : هو مؤلف أو مركب ـ بمعنى أنه كانت أجزاؤه متفرقة فجمع بينها كما يجمع بين أجزاء المركبات من الأطعمة والأدوية والثياب والأبنية ـ فهذا التركيب من اعتقده في اللّه ، فهو من أكفر الناس وأضلهم ، ولم يعتقده أحد من الطوائف المشهورة في الأمة . بل أكثر العقلاء عندهم أن مخلوقات / الرب ليست مركبة هذا التركيب ، ٥/٤٢٨
وإنما يقول بهذا من يثبت الجواهر المنفردة .

وكذلك من زعم أن الرب مركب مؤلف؛بمعنى أنه يقبل التفريق والانقسام والتجزئة، فهذا من أكفر الناس وأجهلهم ، وقوله شر من قول الذين يقولون :إن للّه ولداً ؛ بمعنى أنه انفصل منه جزء فصار ولداً له،وقد بسطنا الكلام على هذا في تفسير﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وفي غير ذلك. وكذلك إذا قيل : هو جسم ؛ بمعنى أنه مركب من الجواهر المنفردة ،أو المادة والصورة ،فهذا باطل ، بل هو ـ أيضاً ـ باطل في المخلوقات، فكيف في الخالق ـ سبحانه وتعالى ؟! وهذا مما يمكن أن يكون قد قاله بعض المجسمة الهشامية، والكرامية وغيرهم ممن يحكى عنهم التجسيم ؛ إذ من هؤلاء من يقول : إن كل جسم فإنه مركب من الجواهر المنفردة ، ويقولون مع ذلك : إن الرب جسم ، وأظن هذا قول بعض الكرامية، فإنهم يختلفون في إثبات الجوهر الفرد، وهم متفقون على أنه ـ سبحانه ـ جسم .

لكن يحكى عنهم نزاع في المراد بالجسم، هل المراد به أنه موجود قائم بنفسه، أو المراد به أنه مركب ؟ فالمشهور عن أبي الهَيْصَم وغيره من نظارهم أنه يفسر مراده؛ بأنه موجود قائم بنفسه مشار إليه، لا بمعنى أنه مؤلف مركب . وهؤلاء ممن اعترف نفاة الجسم بأنهم لا يكفرون ؛ فإنهم لم يثبتوا معنى فاسداً في حق اللّه ـ تعالى ـ لكن قالوا: إنهم أخطؤوا في تسمية كل ما هو قائم بنفسه، أو ما هو / موجود جسمًا، من ٥/٤٢٩
جهة اللغة ؛ قالوا : فإن أهل اللغة لا يطلقون لفظ الجسم إلا على المركب .

والتحقيق أن كلا الطائفتين مخطئة على اللغة، أولئك الذين يسمون كل ما هو قائم بنفسه جسمًا، وهؤلاء الذين سموا كل ما يشار إليه وترفع الأيدي إليه جسمًا، وادعوا أن

كل ما كان كذلك فهو مركب ، وأن أهل اللغة يطلقون لفظ الجسم على كل ما كان مركباً. فالخطأ في اللغة ، والابتداع في الشرع مشترك بين الطائفتين.

وأما المعاني : فمن أثبت من الطائفتين ما نفاه الله ورسوله ، أو نفى ما أثبت الله ورسوله ، فهو مخطئ عقلا ، كما هو مخطئ شرعا. بل أولئك يقولون لهم :نحن وأنتم اتفقنا على أن القائم بنفسه يسمى جسماً في غير محل النزاع ، ثم ادعيتم أن الخالق القائم بنفسه يختص بما يمنع هذه التسمية التي اتفقنا نحن وأنتم عليها، فبينا أنه لا يختص ؛ لأن ذلك مبني على أن الأجسام مركبة ، ونحن نمنع ذلك ونقول : ليست مركبة من الجواهر المنفردة.

ولهذا كره السلف والأئمة ـ كالإمام أحمد وغيره ـ أن ترد البدعة بالبدعة، فكان أحمد في مناظرته للجهمية لما ناظروه على أن القرآن مخلوق ، وألزمه أبو عيسى محمد ابن عيسى برغوث [1]، أنه إذا كان غير مخلوق لزم أن يكون الله جسماً وهذا منتف ، فلم يوافقه أحمد، لا على نفي ذلك ، ولا على إثباته؛ بل قال : ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [سورة الإخلاص].

٥/٤٣٠ / ونبه أحمد على أن هذا اللفظ لا يدرى ما يريدون به . وإذا لم يعرف مراد المتكلم به لم يوافقه، لا على إثباته، ولا على نفيه . فإن ذكر معنى أثبته الله ورسوله أثبتناه، وإن ذكر معنى نفاه الله ورسوله نفيناه باللسان العربي المبين، ولم نحتج إلى ألفاظ مبتدعة في الشرع، محرفة في اللغة ، ومعانيها متناقضة في العقل، فيفسد الشرع واللغة والعقل ؛ كما فعل أهل البدع من أهل الكلام الباطل المخالف للكتاب والسنة.

وكذلك ـ أيضاً ـ لفظ «الجبر» كره السلف أن يقال :جبر ، وأن يقال : ما جبر؛ فروى الخلال في كتاب «السنة» عن أبي إسحاق الفزاري ـ الإمام ـ قال : قال الأوزاعي: أتاني رجلان، فسألاني عن القدر، فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما. قلت: رحمك الله ، أنت أولى بالجواب. قال : فأتاني الأوزاعي ومعه الرجلان، فقال: تكلما، فقالا : قدم علينا ناس من أهل القدر فنازعونا في القدر، ونازعناهم حتى بلغ بنا وبهم الجواب ، إلى أن قلنا : إن الله قد جبرنا على ما نهانا عنه، وحال بيننا وبين ما أمرنا به ، ورزقنا ما حرم علينا، فقال : أجبهما يا أبا إسحاق ، قلت: رحمك الله ، أنت أولى بالجواب ، فقال: أجبهما ، فكرهت أن أخالفه، فقلت:يا هؤلاء ، إن الذين

---

(١) هو أحد مناظري الإمام أحمد وقت المحنة، صنف كتاب« الاستطاعة» و« المقالات » وغيرهما، توفى سنة ٢٤٠هـ وقيل : سنة ٢٤١هـ [سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٥٤].

أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة وأحدثوا حدثاً ، وإني أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا إليه، فقال: أجبت وأحسنت يا أبا إسحاق.

وروي ـ أيضًا ـ عن بَقِيَّة بن الوليد قال : سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر، فقال الزبيدي : أمر اللّه أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن/ يقضي ويقدر، ٥/٤٣١
ويخلق ويجبل عبده على ما أحب . وقال الأوزاعي : ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة، فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل ، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول اللّه ﷺ ، وإنما وضعت هذا مخافة أن يرتاب رجل من أهل الجماعة والتصديق.

وروي عن أبي بكر المروذي قال : قلت لأبي عبد اللّه : تقول: إن اللّه أجبر العباد؟ فقال: هكذا لا تقول ، وأنكر هذا . وقال : يضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء.

وقال المروذى : كتب إلى عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف العكبري وقال : إنه تنزه عن ميراث أبيه، فقال رجل قدري : إن اللّه لم يجبر العباد على المعاصي؛فرد عليه أحمد بن رجاء فقال :إن اللّه جبر العباد ـ أراد بذلك إثبات القدر ـ فوضع أحمد بن على كتاباً يحتج فيه ، فأدخلته على أبي عبد اللّه وأخبرته بالقصة قال:ويضع كتاباً ؟! وأنكر عليهما جميعاً : على بن رجاء حين قال :جبر العباد ، وعلى القدري الذي قال : لم يجبر، وأنكر على أحمد بن على وضعه الكتاب واحتجاجه، وأمر بهجرانه لوضعه الكتاب،وقال لي: يجب على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال :جبر العباد .فقلت لأبي عبد اللّه:فما الجواب في هذه المسألة ؟ فقال : يضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء .

قال الخلال : وأخبرنا المروذي في هذه المسألة: أنه سمع أبا عبد اللّه لما أنكر على الذي قال:لم يجبر، وعلى من رد عليه جبر، فقال أبو عبد اللّه:كلما ابتدع /رجل بدعة ٥/٤٣٢
اتسعوا في جوابها ، وقال : يستغفر ربه الذي رد عليهم بمحدثة، وأنكر على من رد شيئاً من جنس الكلام إذا لم يكن له فيه إمام تقدم.

قال المروذي : فما كان بأسرع من أن قدم أحمد بن على من عكبرا ومعه نسخة وكتاب من أهل عكبرا، فأدخلت أحمد بن على على أبي عبد اللّه، فقال : يا أبا عبد اللّه ، هذا الكتاب ادفعه إلى أبي بكر حتى يقطعه، وأنا أقوم على منبر عكبرا وأستغفر اللّه، فقال أبو عبد اللّه لي : ينبغي أن تقبلوا منه وارجعوا إليه.

قال المروذي :سمعت بعض المشيخة يقول : سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : أنكر سفيان الثوري جبر،وقال:اللّه ـ تعالى ـ جبل العباد . قال المروذي: أظنه أراد قول

النبي ﷺ لأشَجِّ عبد القيس.

قلت: هذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع ، وإنما المقصود التنبيه على أن السلف كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فيما يثبتونه وينفونه عن اللّه من صفاته وأفعاله، فلا يأتون بلفظ محدث مبتدع في النفي والإثبات، بل كل معنى صحيح فإنه داخل فيما أخبر به الرسولﷺ . والألفاظ المبتدعة ليس لها ضابط، بل كل قوم يريدون بها معنى غير المعنى الذي أراده أولئك ؛ كلفظ الجسم، والجهة ،والحيز، والجبر ونحو ذلك ، بخلاف ألفاظ الرسول فإن مراده بها يعلم كما يعلم مراده بسائر ألفاظه، ولو يعلم الرجل مراده
٥/٤٣٣ لوجب عليه الإيمان بما قاله مجملاً. ولو قدر معنى صحيح ـ والرسول ﷺ لم يخبر / به ـ لم يحل لأحد أن يدخله في دين المسلمين، بخلاف ما أخبر به الرسول ﷺ فإن التصديق به واجب.

والأقوال المبتدعة تضمنت تكذيب كثير مما جاء به الرسول ﷺ ، وذلك يعرفه من عرف مراد الرسول ﷺ ومراد أصحاب تلك الأقوال المبتدعة . ولما انتشر الكلام المحدث، ودخل فيه ما يناقض الكتاب والسنة، وصاروا يعارضون به الكتاب والسنة، صار بيان مرادهم بتلك الألفاظ وما احتجوا به لذلك من لغة وعقل، يبين للمؤمن ما يمنعه أن يقع في البدعة والضلال ، أو يخلص منها ـ إن كان قد وقع ـ ويدفع عن نفسه في الباطن والظاهر ما يعارض إيمانه بالرسول ﷺ من ذلك. وهذا مبسوط في موضعه.

والمقصود هنا أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يدفع بالألفاظ المجملة كلفظ التجسيم وغيره مما قد يتضمن معنى باطلاً ، والنافي له ينفي الحق والباطل . فإذا ذكرت المعاني الباطلة نفرت القلوب. وإذا ألزموه ما يلزمونه من التجسيم ـ الذي يدعونه نفر إذا قالوا له : هذا يستلزم التجسيم؛ لأن هذا لا يعقل إلا في جسم ـ لم يحسن نقض ما قالوه ، ولم يحسن حله. وكلهم متناقضون.

٥/٤٣٤ وحقيقة كلامهم أن ما وصف به الرب نفسه، لا يعقل منه إلا ما يعقل في/ قليل من المخلوقات التي نشهدها كأبدان بني آدم . وهذا في غاية الجهل ؛ فإن من المخلوقات مخلوقات لم نشهدها كالملائكة والجن حتى أرواحنا. ولا يلزم أن يكون ما أخبر به الرسول ﷺ مماثلاً لها، فكيف يكون مماثلاً لما شاهدوه؟!

وهذا الكلام في لفظ الجسم من حيث «اللغة»

وأما الشرع، فمعلوم أنه لم ينقل عن أحد من الأنبياء ولا الصحابة، ولا التابعين ، ولا سلف الأمة أن اللّه جسم، أو أن اللّه ليس بجسم، بل النفي والإثبات بدعة في الشرع.

وأما من جهة العقل فبينهم نزاع فيما اتفقوا على تسميته جسماً : كالسماء والأرض، والريح والماء ، ونحو ذلك مما يشار إليه ويختص بجهة وهو متحيز، قد تنازعوا :هل هو مركب من جواهر لا تقبل القسمة، أو من مادة وصورة، أو لا من هذا ولا من هذا ؟ وأكثر العقلاء على القول الثالث. وكل من القولين الأولين قاله طائفة من النظار. والأول: كثير في أهل الكلام، والثاني: كثير في الفلاسفة، لكن قول الطائفتين باطل ، معلوم بالعقل بطلانه عند أهل القول الثالث.

وإذا كان كذلك ، فإذا قال القائل: أنا أقول: إنه فوق العرش ، وأنه ترفع الأيدي إليه ونحو ذلك ، وليس كل ما كان كذلك كان مركباً من أجزاء مفردة، /ولا من المادة ٥/٤٣٥
والصورة العقليين، كان الكلام مع هذا في التلازم. فإذا قال الثاني : بل كل ما كان فوق غيره ، وكل ما كان يشار إليه بالأيدي ، فلا يكون إلا مركباً إما من هذا ، وإما من هذا: كان هذا بمنزلة قول الآخر: كل ما كان حياً قادراً عالماً ، فلا يكون إلا مركباً هذا التركيب، أو كل ما كان له حياة وعلم وقدرة، فلا يكون إلا مركباً هذا التركيب ، أو كل ما كان سميعاً بصيراً متكلماً فلا يكون إلا مركباً هذا التركيب ، بناء على أن كل موجود قائم بنفسه هو جسم ،وكل جسم فهو مركب هذا التركيب.

ومعلوم أن هذا باطل عند جماهير العلماء والعقلاء باتفاقهم؛ فإني لا أعلم طائفة من العقلاء المعتبرين أنهم قالوا: هوجسم، وهو مركب هذا التركيب، بل الذي أعرف أنهم قالوا:هو جسم كالهشامية والكرامية لا يفسرون كلهم الجسم بما هو مركب هذا التركيب، بل إنما نقل هذا عن بعضهم،وقد ينقل عن بعضهم مقالات ينكرها بعضهم،كما نقل عن مقاتل بن سليمان، وهشام بن الحكم مقالات ردية. ومن الناس من رد هذا النقل عن مقاتل بن سليمان فرده كثير من الناس. وأما النقل عن هشام فرده كثير من أتباعه.

ومن قدر أنه قال ذلك من الناس ، فقوله باطل كسائر من قال على اللّه الباطل، كما حكي عن بعض اليهود والرافضة والمجسمة، وإنهم يصفونه بالنقائص التي تعالى اللّه عنها، كوصفه أنه أجوف ، وأنه بكى حتى رمد وعادته الملائكة، وعض أصابعه حتى خرج منها الدم، وأنه ينزل عشية عرفة على جمل أوْرَق(١).

/وأمثال هذه الأقوال التي فيها الافتراء على اللّه ـ تعالى ـ ووصفه بالنقائص، ما ٥/٤٣٦
يعلم بطلانه بصريح المعقول وصحيح المنقول.

---

(١) أي : في لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل لحْمًا لا سيْرًا وعملا. انظر: القاموس المحيط ، مادة «ورق».

وهكذا إذا قال القائل : إنه لو نزل إلى سماء الدنيا، للزم الحركة، والانتقال والحركة والانتقال من خصائص الأجسام، أو قال : للزم أن يخلو منه العرش وذلك محال ؛ فإن للناس في هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: قول من يقول : ينزل وليس بجسم.

وقول من يقول : ينزل وهو جسم .

وقول من لا ينفي الجسم ولا يثبته، إما إمساكاً عنهما؛ لكون ذلك بدعة وتلبيساً كما تقدم ، وإما مع تفصيل المراد ، وإقرار الحق وبطلان الباطل، وبيان الصواب من المعاني العقلية التي اشتبهت في هذا ؛ مثل أن يقال : النزول والصعود والمجيء والإتيان، ونحو ذلك، مما هو أنواع جنس الحركة ،لا نسلم أنه مخصوص بالجسم الصناعي الذي يتكلم المتكلمون في إثباته ونفيه، بل يوصف به ما هو أعم من ذلك .ثم هنا طريقان :

أحدهما: أن هذه الأمور توصف بها الأجسام والأعراض فيقال : جاء البرد وجاء الحر، وجاءت الحمى، ونحو ذلك من الأعراض . وإذا كانت الأعراض توصف بالمجيء والإتيان،علم أن ذلك ليس من خصائص الأجسام ،فلا يجوز أن يوصف بهذه/ الأفعال ٥/٤٣٧
حقيقة مع أنه ليس بجسم، وهذه طريقة الأشعري ومن نظار أهل الحديث وأتباع الأئمة الأربعة وغيرهم كالقاضي أبي يعلى وغيره ، وهذا معنى ما حكاه في «المقالات» عن أهل السنة والحديث.

ولهذا كان قول ابن كلاب والأشعري والقلانسي ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم من أصحاب أحمد وغيرهم، أن الاستواء فعل يفعله الرب في العرش. وكذلك يقولون في النزول. ومعني ذلك أنه يحدث في العرش قرباً فيصير مستوياً عليه من غير أن يقوم به ـ نفسه ـ فعل اختياري ، سواء قالوا : إن الفعل هو المفعول ، أو لم يقولوا بذلك ، وكذلك النزول عندهم، فهم يجعلون الأفعال اللازمة بمنزلة الأفعال المتعدية؛ وذلك لأنهم اعتقدوا أنه لا يقوم به فعل اختياري؛ لأن ذلك حادث ، فقيامه به يستلزم أن تقوم به الحوادث ، فنفوا ذلك لهذا الأصل الذي اعتقدوه.

الطريق الثاني: أن يقال : المجيء والإتيان والصعود والنزول توصف به روح الإنسان التي تفارقه بالموت ، وتسمى النفس ، وتوصف به الملائكة، وليس نزول الروح وصعودها من جنس نزول البدن وصعوده؛ فإن روح المؤمن تصعد إلى فوق السموات، ثم تهبط إلى الأرض، فيما بين قبضها ووضع الميت في قبره. وهذا زمن يسير، لا يصعد البدن إلى ما فوق السموات، ثم ينزل إلى الأرض في مثل هذا الزمان.

٥/٤٣٨ / وكذلك صعودها ثم عودها إلى البدن في النوم واليقظة؛ ولهذا يشبه بعض الناس نزولها إلى القبر بالشعاع ، لكن ليس هذا مثالا مطابقاً. فإن نفس الشمس لا تنزل ، والشعاع الذي يظهر على الأرض هو عرض من الأعراض يحدث بسبب الشمس ، ليس هو الشمس ولا صفة قائمة بها ، والروح نفسها تصعد وتنزل ، ففي الحديث المشهور حديث البراء بن عازب ـ رضي اللّه عنه ـ في قبض الروح وفتنة القبر، وقد رواه الإمام أحمد وغيره (١)، ورواه أبو داود أيضاً واختصره، وكذلك النسائي ، وابن ماجه(٢)، ورواه أبو عوانة في «صحيحه» بطوله، وفي روايته عن زاذان : سمعت البراء ، وذلك يبطل قول من قال : إنه لم يسمعه منه.

ورواه الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي معاوية، قال : حدثنا الأعمش، ثنا المنهال بن عمرو ، عن أبي عمرو زاذان، عن البراء بن عازب ـ رضي اللّه عنهما ـ قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في جنازة فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، وذكر الحديث بطوله(٣). ورواه الحاكم أيضاً من حديث محمد بن الفضل، قال: حدثنا الأعمش، فذكره. وقال في آخره: حدثنا فضيل ، حدثني أبي، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة بهذا الحديث، إلا أنه قال :«أرقد رقدة كرقدة من لا يوقظه إلا أحب الناس إليه».

٥/٤٣٩ قال : وقد رواه شعبة، وزائدة، وغيرهما ،عن الأعمش، ورواه مُؤَمَّل، عن / الثوري عنه، قال : وهو على شرطهما قد احتجا بالمنهال بن عمرو، قال : وقد روى ابن جرير عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال : ذكر النبي ﷺ المؤمن والكافر، ثم ذكر طرفاً من حديث القبر(٤)، وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الرزاق ، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب ، عن المنهال بن عمرو، الحديث بطوله. قال : وكذلك أبوخالد الدالاني، وعمرو بن قيس الملائي، والحسن بن عبيد الله النخعي، عن المنهال، ورواه شعيب بن صفوان، عن يونس بن خباب، فقال: عن المنهال ، عن زاذان، عن أبي البختري ، قال ، سمعت البراء قال : وهذا وَهْم من شعيب، فقد رواه معمر ومهدي بن ميمون وعباد بن عباد عن يونس التامر.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: وأما حديث البراء رواه المنهال بن عمرو عن زاذان،

---

(١) أحمد ٤ / ٢٨٧ ، ٢٩٥ .

(٢) أبو داود فى السنة (٤٧٥٣) ، والنسائى فى الجنائز (١٨٣٣) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٦٢) .

(٣) الحاكم ١/ ٣٧.

(٤) الحاكم ١/ ٣٨.

عن البراء ، فحديث مشهور رواه عن المنهال الجَمُّ الغَفِير(١). ورواه عن البراء عدي بن ثابت، ومحمد بن عقبة، وغيرهما. ورواه عن زاذان عطاء بن السائب. قال: وهو حديث أجمع رواة الأثر على شهرته واستفاضته، وقال الحافظ أبو عبد اللّه بن منده: هذا الحديث إسناده متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء.

وقال الإمام أحمد في «المسند»: حدثنا أبو معاوية ، ثنا الأعمش ، عن المنهال بن
٥/٤٤٠ عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب ـ رضي اللّه عنه ـ قال :خرجنا /مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا باللّه من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً ،ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل عليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كَفَن من أكفان الجنة ، وحَنُوط من حنوط الجنة، حتى يجلسون منه مَدَّ بَصَرِه، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من اللّه ورضوان ». قال : « فتخرج فتسيل كما تسيل القَطْرَة من فِي السِّقَاء ، فيأخذها . فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها ريح كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة بين السماء والأرض، إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له. فيُشيِّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة ، فيقول اللّه تعالى: اكتبوا كتاب عبدي في عِلِّيِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى»، قال : «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه
٥/٤٤١ فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : اللّه ربي، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول :/ ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول : هو رسول اللّه ﷺ ، فيقولان له : وما علمك؟ فيقول : قرأت كتاب اللّه فآمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء: أن صَدَقَ عبدي، فأفْرِشُوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة»، قال : «فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره». قال : «فيأتيه رجل حَسَن الوجه، حسن الثياب، طيِّب الريح، فيقول : أبشر بالذي يَسُرُّك، هذا يومك الذي كنت تُوعَد، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟ فيقول : أنا

(١) الجمّ : الكثير، والغفير: المجتمع ، أي العدد الكثير بجملتهم. انظر: القاموس المحيط، والمصباح المنير، مادتي «جمم وغفر».

عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

وقال: « وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل عليه من السماء ملائكة سُود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب»، قال: «فتتفرق في جسده، فينزعها كما ينزع السَّفُّود مَن الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المُسُوح، ويخرج منها كأنتن ريح جِيفَة وُجِدَت على وجه الأرض ،فيصعدون بها ،فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول اللّهﷺ :﴿**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ / الْجَنَّةَ حَتَّىٰ** ٥/٤٤٢ **يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠] «فيقول اللّه: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً ». ثم قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج : ٣١].« فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري . فيقولان له: ما دينك؟ فيقول : هاه هاه، لا أدري : فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول : هاه هاه، لا أدري ، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمُومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب، لا تقم الساعة»(١).

قلت: هذا قد رواه عن البراء بن عازب غير واحد غير زاذان، منهم: عدي بن ثابت، ومحمد بن عقبة ، ومجاهد.

قال الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن إسحاق بن منده في كتاب«الروح والنفس»: حدثنا محمد بن يعقوب بن يوسف ، ثنا محمد بن إسحاق الصَّغَاني، ثنا أبو النضر هاشم بن قاسم، ثنا عيسى بن المسيَّب، عن عدي بن ثابت،عن البراء بن عازب،قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في/ جنازة رجل من الأنصار،فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ،فجلس وجلسنا ٥/٤٤٣

(١) سبق تخريجه ص ٢٦١ .

حوله، كأن على أكتافنا فلق الصخر،وعلى رؤوسنا الطير، فأزم قليلا ـ والإزمام : السكوت ـ فلما رفع رأسه قال: «إن المؤمن إذا كان في قُبُل من الآخرة ودُبُر من الدنيا وحضره ملك الموت، نزلت عليه ملائكة من السماء ، معهم كفن من الجنة، وحَنُوط من الجنة، فيجلسون منه مدَّ بَصَره، وجاءه ملك الموت فجلس عند رأسه ، ثم يقول : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى رحمة اللّه ورضوانه، فتَسيل نفسه كما تقطر القَطْرَة من السِّقاء. فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض إلا الثقلين،ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش ، مقربو كل سماء. فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين، فيقول الرب عز وجل:ردوا عبدي إلى مضجعه،فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى فيرد إلى مضجعه،فيأتيه مُنْكَر ونَكير، يثيران الأرض بأنيابهما،ويَفْحَصَان[1] الأرض بأشعارهما،فيجلسانه ثم يقال له:يا هذا من ربك؟ فيقول: اللّه ربي، فيقولان: صدقت. ثم يقال له: ما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان له: صدقت. ثم يقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد رسول الله ، فيقولان:صدقت. ثم يفسح له في قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه، طيب الريح، فيقول له: جزاك الله خيراً، فواللّه ـ ما علمت ـ إن كنت لسريعاً في طاعة اللّه، بطيئاً عن معصية اللّه، فيقول: وأنت، جزاك اللّه خيراً، فمن أنت؟ فقال: أنا عملك الصالح . ثم يفتح له باب إلى/ الجنة، فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة. ٥/٤٤٤

وإن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة وحضره ملك الموت، نزل عليه من السماء ملائكة معهم كفن من نار، وحنوط من نار». قال : «فيجلسون منه مد بصره ، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه، ثم قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى غضب اللّه وسخطه، فتتفرق روحه في جسده ،كراهة أن تخرج لما ترى وتعاين، فيستخرجها كما يستخرج السَّفُّود[2] من الصوف المبلول، فإذا خرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء الدنيا فتغلق دونه، فيقول الرب تبارك وتعالى: ردوا عبدي إلى مضجعه، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى،فترد روحه إلى مضجعه،فيأتيه منكر ونكير، يثيران الأرض بأنيابهما، ويفحصان الأرض بأشعارهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، فيجلسانه ،ثم يقولان له :من ربك؟ فيقول : لا أدري ،

(١) أي : يحفران . انظر: النهاية ٣/ ٤١٥.

(٢) حديدة ذات شعب يشوى عليها اللحم . انظر : لسان العرب ، مادة « سفد » .

فينادى من جانب القبر: لا دريت، فيضربانه بمرزبة من حديد، لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل . ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، و يأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: جزاك اللّه شراً ، فواللّه ـ ما علمت ـ إن كنت بطيئاً عن طاعة اللّه، سريعاً في معصية اللّه، فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا عملك الخبيث ، ثم يفتح له باب إلى النار، فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة».

وقال ابن منده: رواه الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمود بن غيلان ، وغيرهما عن أبي النضر.

٥/٤٤٥ /ومن ذلك حديث ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة. وقد رواه الإمام أحمد في « مسنده» وغيره[١]. وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: هذا حديث متفق على عدالة ناقليه. اتفق الإمامان ـ محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج ـ على ابن أبي ذئب ومحمد بن عمرو بن عطاء ، وسعيد بن يسار ، وهم من شرطهما ، ورواه المتقدمون الكبار عن ابن أبي ذئب مثل ابن أبي فديك، وعنه دحيم بن إبراهيم.

قلت: وقد رواه عن ابن أبي ذئب غير واحد ، ولكن هذا سياق حديث ابن أبي فديك لتقدمه. قال ابن أبي فديك: حدثني محمد بن أبي ذئب،عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال:«إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح فيقولون:اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروْح وريْحَان ورب غير غضبان»، قال : «فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء الدنيا فيستفتح لها فيقال: من هذا ؟ فيقولون : فلان، فيقولون: مرحباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان . فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها اللّه عز وجل.وإذا كان الرجل السوء قال:اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث. اخرجي ذميمة، وأبشري بحَميم وغَسَّاق ، وآخَرَ من شكْله

٥/٤٤٦ /أزواج. فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا ؟ فيقال : فلان، فيقولون : لا مرحبا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لن تفتح لك أبواب السماء،فترسل بين السماء والأرض،فتصير إلى قبره . فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشغوف، ثم يقال:ما كنت تقول في الإسلام؟[٢] فيقول: ما هذا الرجل ؟ فيقول: محمد رسول اللّه جاءنا بالبينات من

(١) سبق تخريجه ص ١٣ .

(٢) هكذا بالأصل .

قبل اللّه فآمنا وصدقنا »[1]. وذكر تمام الحديث.

والمقصود أن في حديث أبي هريرة قوله: « فيصير إلى قبره» كما في حديث البراء ابن عازب، وحديث أبي هريرة روي من طرق تصدق حديث البراء بن عازب، وفي بعض طرقه سياق حديث البراء بطوله، كما ذكره الحاكم ، مع أن سائر الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن؛ إذ المسألة للبدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور، وكذلك السؤال للروح بلا بدن قاله ابن ميسرة وابن حزم، ولو كان كذلك لم يكن للقبر بالروح اختصاص.

وزعم ابن حزم أن «العود» لم يروه إلا زاذان عن البراء وضعفه، وليس الأمر كما قاله، بل رواه غير زاذان عن البراء. وروى عن غير البراء مثل عدي بن ثابت وغيره.

٥/٤٤٧ وقد جمع الدارقطني طرقه في مصنف مفرد، مع أن زاذان من / الثقات، روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره، وروى له مسلم في « صحيحه» وغيره، قال يحيى بن معين: هو ثقة ، وقال حميد بن هلال ـ وقد سئل عنه فقال ـ:هو ثقة، لا يسأل عن مثل هؤلاء، وقال ابن عدي: أحاديثه لا بأس بها إذا روى عنه ثقة ، وكان يتبع الكرابيسي ، وإنما رماه من رماه بكثرة كلامه.

وأما المنهال بن عمرو، فمن رجال البخاري. وحديث « عود الروح» قد رواه عن غير البراء أيضاً. وحديث زاذان مما اتفق السلف والخلف على روايته وتلقيه بالقبول.

وأرواح المؤمنين في الجنة ،وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن،كما أنها تكون في البدن،ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم.أما كونها في الجنة،ففيه أحاديث عامة، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء،واحتجوا بالأحاديث المأثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره.فالأول مثل حديث الزهري المشهور الذي رواه مالك عن الزهري في «موطئه» وشعيب بن أبي حمزة وغيرهما ،وقد رواه الإمام أحمد في «المسند» وغيره.

قال الزهري: أخبرنا عبد الرحمن بن عبد اللّه بن كعب بن مالك: أن كعب بن مالك الأنصاري ـ وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ كان يحدث أن رسول اللّه ﷺ قال:«إنما نَسَمَة[2] المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه اللّه إلى جسده»، فأخبر

٥/٤٤٨ أنه يعلق في شجر الجنة حتى يرجع إلى جسده،/ يعني في النشأة الآخرة. قال أبو عبد اللّه بن منده: ورواه يونس ، والزبيدي، والأوزاعي ، وابن إسحاق.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣ .

(٢) أي : روح . انظر : لسان العرب، مادة « نسم».

وقال عمرو بن دينار ، وابن أخي الزهري ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه قال. . . قال صالح بن كَيْسَان، وابن أخي الزهري، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب، أنه بلغه أن كعباً قال . . . رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح(١).

قلت: وفي الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة،عن أبي هريرة عن النبى ﷺ، رواه أبو حاتم في « صحيحه» وقد رواه ـ أيضاً ـ الأئمة. قال:« إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه. فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه. فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلِي مدخل ، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس، وقد دنت للغروب فيقال له: ما هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي؛ فيقولون: إنك ستفعل ، أخبرنا عما / نسألك عنه. فقال:عم تسألوني ؟ ٥/٤٤٩
فيقولون: ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تشهد عليه به ؟ فيقول: أشهد أنه رسول اللّه ، وأنه جاء بالحق من عند اللّه، فيقال : على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء اللّه تعالى ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له: ذلك مقعدك منها، وما أعد اللّه لك فيها ، فيزداد غِبْطَةً وسروراً، ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له: ذلك مقعدك منها، وما أعد اللّه لك فيها لو عصيت ربك، فيزداد غبطة وسروراً ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، وينور له فيه، ويعاد جسده كما بدئ، وتجعل نسمته في نسم الطيب، وهي طير تَعْلُق(٢) فى شجر الجنة».

وفي لفظ: « وهو في طير يعلق في شجر الجنة». قال أبو هريرة: قال اللّه تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ،وفي لفظ: « ثم يعاد الجسد إلى ما بدئ منه»(٣).

---

(١) الترمذي في الجهاد (١٦٤١)، والنسائي في الجنائز (٢٠٧٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧١)، والموطأ في الجنائز ١/ ٢٤٠ (٤٩)، و أحمد ٣/ ٤٥٥، ٤٥٦.

(٢) أي : ترعى وتأكل . انظر : لسان العرب ، مادة « علق».

(٣) ابن حبان في الإحسان (٣١٠٣) ، وفي الموارد (٧٨١)، وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٥٤، ٥٥ :« رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن».

وهذه الإعادة هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] ليست هي النشأة الثانية.

ورواه الحاكم في «صحيحه» عن معمر، عن قتادة عن قسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المؤمن إذا احتضر أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون : اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب غير غضبان ؛
٥/٤٥٠ فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنهم ليناوله بعضهم/ بعضًا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ! وكلما أتوا سماءً قالوا ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلهم أفرح به من أحدكم بغائبه إذا قدم عليه، فيسألونه : ما فعل فلان؟ قال :فيقولون : دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدنيا ، فإذا قال لهم : ما أتاكم؟! فإنه قد مات ؛ يقولون:ذهب به إلى أُمه الهاوية.وأما الكافر فإن ملائكة العذاب تأتيه،فتقول: اخرجى ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب اللّه وسخطه، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فينطلقون به إلى باب الأرض ، فيقولون: ما أنتن هذه الريح !! كلما أتوا على أرض قالوا ذلك ، حتى يأتوا به أرواح الكفار».

قال الحاكم : تابعه هشام الدّسْتُوائي ، عن قتادة . وقال همام بن يحيى: عن قتادة، عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه.

والكل صحيح، وشاهدها حديث البراء بن عازب[1] . وكذلك رواه الحافظ أبو نعيم من حديث القاسم بن الفضل الحذائي، كما رواه مَعْمَر . قال : ورواه أبو موسى وبُنْدَار، عن معاذ بن هشام، عن أبيه ، عن قتادة، مثله مرفوعاً. ومن أصحاب قتادة من رواه موقوفاً، ورواه همام عن قتادة، عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة، مرفوعاً نحوه. وقد روى هذا الحديث النسائي ، والبزار في « مسنده» وأبو حاتم في « صحيحه»[2].

٥/٤٥١ /وقد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة قال :«إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فصعدا بها ، فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال :فيقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض ،صلى اللّه عليك وعلى جسد كنت تعمرينه،فينطلق بها إلى ربه ثم يقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال:وإن الكافر إذا خرجت روحه،وذكر من نتنها وذكر لعناً ،فيقول أهل السماء :روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال :

(١) الحاكم ١/٣٥٢، ٣٥٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٦٧ .

انطلقوا به إلى آخر الأجل» .قال أبو هريرة: فرد رسول اللّه ﷺ رَيْطَة كانت عليه على أنفه هكذا (١).

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول عند النوم: « باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» (٢)، وفي الصحيح أيضاً: أنه كان يقول: «اللهم أنت خلقت نفسي، وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، فإن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(٣).

ففي هذه الأحاديث من صعود الروح إلى السماء ، وعودها إلى البدن، ما بين أن صعودها نوع آخر، ليس مثل صعود البدن ونزوله.

وروينا عن الحافظ أبي عبد اللّه محمد بن منده في كتاب« الروح والنفس»: حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ثنا عبد اللّه بن الحسن الحراني ، ثنا أحمد /بن شعيب، ٥/٤٥٢
ثنا موسى بن أيمن، عن مطرف ، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ في تفسير هذه الآية: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [الزمر : ٤٢]. قال: تلتقي أرواح الأحياء في المنام بأرواح الموتى ويتساءلون بينهم، فيمسك اللّه أرواح الموتى، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وروى الحافظ أبو محمد بن أبى حاتم في«تفسيره»: حدثنا عبداللّه بن سليمان، ثنا الحسن، ثنا عامر، عن الفُرَات ، ثنا أسباط عن السدى: ﴿**وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ قال: يتوفاها في منامها. قال: فتلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان. قال : فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجله في الدنيا. قال : وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس.

وهذا أحد القولين وهو أن قوله : ﴿**فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ**﴾ [الزمر: ٤٢] أريد بها أن من مات قبل ذلك لقي روح الحي.

والقول الثاني ـ وعليه الأكثرون ـ أن كلا من النفسين ـ الممسكة والمرسلة ـ توفيتا وفاة النوم، وأما التي توفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث ؛وهي التي قدمها بقوله: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾، وعلى هذا يدل الكتاب والسنة؛ فإن اللّه قال: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ**

---

(١) مسلم في الجنة (٢٨٧٢/ ٧٥).
(٢) البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) .
(٣) مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٢ / ٦٠) .

حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، فذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها بالنوم، وأما التى / توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا إرسال ، ولا ذكر في الآية التقاء الموتى بالنيام. ٥/٤٥٣

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين ؛ فإن اللّه ذكر توفيتين : توفى الموت، وتوفي النوم، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى.

ومعلوم أنه يمسك كل ميتة، سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك ، ويرسل من لم تمت. وقوله : ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في أحد التوفيتين ويرسلها في الأخرى ، وهذا ظاهر اللفظ ومدلوله بلا تكلف. وما ذكر من التقاء أرواح النيام والموتي لا ينافي ما في الآية ، وليس في لفظها دلالة عليه، لكن قوله: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ يقتضى أنه يمسكها لا يرسلها كما يرسل النائمة، سواء توفاها في اليقظة أو في النوم؛ ولذلك قال النبي ﷺ : «اللهم أنت خلقت نفسي، وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، فإن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(١) فوصفها بأنها في حال توفى النوم إما ممسكة وإما مرسلة.

وقال ابن أبي حاتم: ثنا أبي ،ثنا عمر بن عثمان ، ثنا بَقيَّة ؛ ثنا صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر الحضرمي؛ أن عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ قال لعلى بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه :أعجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء / لم يخطر له على بال ! فتكون رؤياه كأخذ باليد، ويرى الرجل الشيء ؛ فلا تكون رؤياه شيئاً، فقال على بن أبي طالب: أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ إن اللّه يقول : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الزمر : ٤٢] ، فاللّه يتوفى الأنفس كلها، فما رأت ـ وهي عنده في السماء ـ فهو الرؤيا الصادقة . وما رأت ـ إذا أرسلت إلى أجسادها ـ تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها ، فأخبرتها بالأباطيل وكذبت فيها ، فعجب عمر من قوله. ٥/٤٥٤

وذكر هذا أبو عبد اللّه محمد بن إسحاق بن منده في كتاب «الروح والنفس» وقال: هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره، ولفظه : قال على بن أبي طالب: يا أمير

(١) سبق تخريجه بالصفحة الماضية .

المؤمنين ، يقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ والأرواح يعرج بها في منامها ، فما رأت وهي في السماء فهو الحق، فإذا ردت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها، فما رأت من ذلك فهو الباطل.

قال الإمام أبو عبد الله بن منده: وروى عن أبي الدرداء قال : روى ابن لَهِيعَة عن عثمان بن نعيم الرُّعَيْني ، عن أبي عثمان الأصْبَحِي ، عن أبي الدرداء قال : إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العَرْش قال : فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود، وإن كان جُنُباً لم يؤذن لها بالسجود. رواه زيد بن الحباب وغيره.

٥/٤٥٥ /وروى ابن منده حديث على وعمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً ، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، ثنا محمد بن شعيب، ثنا ابن عياش بن أبي إسماعيل، وأنا الحسن بن على ، أنا عبد الرحمن بن محمد ، ثنا قتيبة والرازي، ثنا محمد بن حميد، ثنا أبو زهير عبد الرحمن بن مغراء الدوسي ، ثنا الأزهر بن عبد الله الأزدي، عن محمد بن عجلان، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال : لقي عمر بن الخطاب على بن أبي طالب فقال: يا أبا الحسن، ربما شهدت وغبنا، وربما شهدنا وغبت، ثلاثة أشياء أسألك عنهن، فهل عندك منهن علم؟ فقال على بن أبي طالب: وما هن ؟ قال: الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً. فقال : نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الأرواح جنود مُجَنَّدَة، تلتقي في الهواء ، فَتَشَامُّ ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» قال عمر: واحدة. قال عمر: والرجل يحدث الحديث إذ نسيه، فبينما هو قد نسيه إذ ذكره. فقال: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من القلوب قلب إلا وله سَحَابة كسحابة القمر، فبينما القمر يضيء إذ تجللته سحابة فأظلم، إذ تجلت عنه فأضاء، وبينما القلب يتحدث إذ تجللته فنسي، إذ تجلت عنه فذكر». قال عمر : اثنتان . قال : والرجل يرى الرؤيا: فمنها ما يصدق، ومنها ما يكذب. فقال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد ينام فيمتلئ نوماً إلا عُرِج بروحه إلى العرش، فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق ، والذي يستيقظ دون العرش / فهي الرؤيا التي تكذب». فقال عمر : ثلاث كنت في ٥/٤٥٦ طلبهن؛ فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت.

ورواه من وجه ثالث: أن ابن عباس سأل عنه عمر، فقال: حدثنا أحمد بن سليمان بن أيوب، ثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد، ثنا آدم بن أبي إياس، ثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ثعلبة بن مسلم الخَثْعَمِي، عن ابن أبي طلحة القرشي؛ أن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ

قال لعمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ يا أمير المؤمنين، أشياء أسألك عنها؟ قال: سل عما شئت؛ فقال: يا أمير المؤمنين، مم يذكر الرجل، ومم ينسى؟ ومم تصدق الرؤيا، ومم تكذب؟ فقال له: عمر أما قولك: مم يذكر الرجل ومم ينسى؟ فإن على القلب طَخَاء[1] مثل طخاء القمر، فإذا تغشت القلب نسي ابن آدم، فإذا تجلت عن القلب ذكر ما كان ينسى، وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب؟ فإن اللّه يقول: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [الزمر : ٤٢] فمن دخل منها في ملكوت السماء فهي التي تصدق، وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب.

قلت: وفي هذين الطريقين ذكر أن التي تكذب ما لم يكمل وصولها إلى العلو. وفي الأول ذكر أن ذلك يكون مما يحصل بعد رجوعها. وكلا الأمرين ممكن؛ فإن الحكم يختلف لفوات شرطه، أو وجود مانعه عن ذلك، قال عكرمة ومجاهد : إذا نام الإنسان فإن له سببا تجري فيه الروح،/ وأصله في الجسد، فتبلغ حيث شاء اللّه، فما دام ذاهباً ٥/٤٥٧
فإن الإنسان نائم ، فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان ، فكان بمنزلة شعاع هو ساقط بالأرض وأصله متصل بالشمس.

قال ابن منده: وأخبرت عن عبد اللّه بن عبد الرحمن السمرقندي، عن على بن يزيد السمرقندي ـ وكان من أهل العلم والأدب وله بصر بالطب والتعبير ـ قال : إن الأرواح تمتد من مَنْخِر الإنسان ، ومراكبها وأصلها في بدن الإنسان، فلوخرج الروح لمات، كما أن السراج لَو فَرَّقْتَ بينها وبين الفتيلة لطفئت . ألا ترى أن تركب النار في الفتيلة، وضوءها وشعاعها ملأ البيت، فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان في منامه حتى تأتي السماء، وتَجُول في البلدان ، وتلتقي مع أرواح الموتى . فإذا رآها الملك الموكل بأرواح العباد أراه ما أحب أن يراه وكان المرء في اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً لا يلتفت في اليقظة إلى شيء من الباطل رجع إليه روحه، فأدى إلى قلبه الصدق بما أراه اللّه ـ عز وجل ـ على حسب صدقه. وإن كان خفيفاً نَزِيقاً [2]يحب الباطل والنظر إليه، فإذا نام وأراه اللّه أمراً من خير أو شر رجع روحه، فحيثما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو باطلاً وقف عليه كما يقف في يقظته، وكذلك يؤدي إلى قلبه فلا يعقل ما رأى؛ لأنه خلط الحق بالباطل، فلا يمكن معبر يعبر له، وقد اختلط الحق بالباطل . قال الإمام ابن منده: ومما يشهد لهذا الكلام ما ذكرناه عن عمر وعلى وأبي الدرداء ـ رضي اللّه عنهم.

---

(١) الطَّخَاء: ثِقَلٌ وغَشًى ، وأصله :الظُّلْمة والغَيْم. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/١١٦.

(٢) أي : خفيفًا . انظر : المصباح المنير، مادة « نزق».

قلت: وخرج ابن قتيبة في كتاب « تعبير الرؤيا» ، قال: حدثني حسين /بن حسن ٥/٤٥٨
المروزى[١]، أخبرنا ابن المبارك عبد اللّه، ثنا المبارك عن الحسن أنه قال: أنبئت أن العبد إذا نام وهو ساجد يقول اللّه ـ تبارك وتعالى: « انظروا إلى عبدي، روحه عندي، وجسده في طاعتى».

وإذا كانت الروح تعرج إلى السماء مع أنها في البدن،علم أنه ليس عروجها من جنس عروج البدن الذي يمتنع هذا فيه. وعروج الملائكة ونزولها من جنس عروج الروح ونزولها، لا من جنس عروج البدن ونزوله. وصعود الرب ـ عز وجل ـ فوق هذا كله وأجل من هذا كله؛ فإنه ـ تعالى ـ أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق.

وإذا قيل : الصعود والنزول والمجيء والإتيان أنواع جنس الحركة ، قيل : والحركة ـ أيضاً ـ أصناف مختلفة ، فليست حركة الروح كحركة البدن، ولا حركة الملائكة كحركة البدن، والحركة يراد بها انتقال البدن والجسم من حيز ، ويراد بها أمور أخرى، كما يقوله كثير من الطبائعية والفلاسفة: منها الحركة في الكم كحركة النمو، والحركة في الكيف كحركة الإنسان من جهل إلى علم، وحركة اللون أو الثياب من سواد إلى بياض ،والحركة في الأيْن كالحركة تكون بالأجسام النامية من النبات والحيوان في النمو والزيادة، أو في الذبول والنقصان، وليس هناك انتقال جسم من حيز إلى حيز.

ومن قال : إن الجواهر المفردة تنتقل ، فقوله غلط ، كما هو مبسوط في موضعه.
/وكذلك الأجسام تنتقل ألوانها وطعومها وروائحها ، فيسود الجسم بعد ابيضاضه، ٥/٤٥٩
ويحلو بعد مرارته، بعد أن لم يكن كذلك . وهذه حركات واستحالات وانتقالات ، وإن لم يكن في ذلك انتقال جسم من حيز إلى حيز. وكذلك الجسم الدائر في موضع واحد كالدولاب والفلك هو بجملته لا يخرج من حيزه، وإن لم يزل متحركا. وهذه الحركات كلها في الأجسام ، وأما في الأرواح فالنفس تنتقل من بغض إلى حب ، ومن سخط إلى رضا. ومن كراهة إلى إرادة،ومن جهل إلى علم ، ويجد الإنسان من حركات نفسه وانتقالاتها وصعودها ونزولها ما يجده . وذلك من جنس آخر غير جنس حركات بدنه.

وإذا عرف هذا ؛ فإن للملائكة من ذلك ما يليق بهم، وإن ما يوصف به الرب ـ تبارك وتعالى ـ هو أكمل وأعلى وأتم من هذا كله، وحينئذ فإذا قال السلف والأئمة ـ

---

(١) حسين بن الحسن بن حرب السلمي بن عبد الله المروزي، نزيل مكة. روى عن ابن المبارك ويزيد بن زريع وابن علية وغيرهم، وروى عنه الترمذي وابن ماجه وغيرهما،وثقه ابن حبان وغير واحد. مات سنة ٤٦هـ . [تهذيب التهذيب ٢/ ٣٣٤].

كحماد بن زيد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهما من أئمة أهل السنة ـ أنه ينزل ولا يخلو منه العرش ، لم يجز أن يقال : إن ذلك ممتنع، بل إذا كان المخلوق يوصف من ذلك بما يستحيل من مخلوق آخر، فالروح توصف من ذلك بما يستحيل اتصاف البدن به ، كان جواز ذلك في حق الرب ـ تبارك وتعالى ـ أولى من جوازه من المخلوق كأرواح الآدميين والملائكة.

ومن ظن أن ما يوصف به الرب ـ عز وجل ـ لا يكون إلا مثل ما توصف به أبدان بني آدم، فغلطه أعظم من غلط من ظن أن ما توصف به الروح مثل ما توصف به الأبدان .

٥/٤٦٠ / وأصل هذا :أن قربه ـ سبحانه ـ ودنوه من بعض مخلوقاته، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ، ويقرب من خلقه كيف شاء، كما قال ذلك من قاله من السلف، وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ [النمل : ٧ـ١١] وقال في السورة الأخرى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص :٢٩، ٣٠] وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا . وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥١، ٥٢] فأخبر أنه ناداه من جانب الطور ، وأنه قربه نجيا، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص :٤٣ـ٤٦] وقال تعالى:/ ﴿هَلْ أَتَاكَ ٥/٤٦١ حَدِيثُ مُوسَىٰ . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ . فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾[النازعات: ١٥ـ٢٠] .

وقال ابن أبي حاتم في «تفسيره»: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة،

حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شريك، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس ـ رضي اللّه عنه ـ أنه قال في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ [النمل: ٨] قال: كان ذلك النار، قال اللّه: من في النور، ونودي أن بورك من في النور.

حدثنا على بن الحسين، ثنا محمد بن حمزة، ثنا على بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي؛ أن عكرمة حدثني عن ابن عباس: ﴿**أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ**﴾ قال: كان ذلك النار نوره ﴿**وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ أي: بورك من في النور ومن حول النور. وكذلك روى بإسناده من تفسير عطية عن ابن عباس: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ**﴾ [النمل: ٨] يعني نفسه، قال: كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها.

حدثنا أبي، ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري[1]، ثنا أبو معاوية، عن شيبان، عن عكرمة: ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ**﴾[النمل: ٨] قال: كان اللّه في نوره.

حدثنا أبو زُرْعَة، ثنا بن أبي شيبة، ثنا على بن جعفر المدائني، عن وَرْقَاء، عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير: ﴿**أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ**﴾[النمل: ٨] قال: ناداه وهو في النور.

/ حدثنا على بن الحسين المَنْجَاني، ثنا سعيد بن أبي مريم، ثنا مُفَضَّل بن أبي ٥/٤٦٢
فَضَالة حدثني ابن ضَمْرَة: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَها نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها**﴾، قال: إن موسى كان على شاطئ الوادي ـ إلى أن قال ـ فلما قام أبصر النار فسار إليها، فلما أتاها ﴿**نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ**﴾، قال: إنها لم تكن ناراً، ولكن كان نور اللّه وهو الذي كان في ذلك النور، وإنما كان ذلك النور منه، وموسى حوله.

حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، ثنا مكي بن إبراهيم، ثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب في قوله عز وجل: ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾قال: النار نور الرحمة، قال: ضوء من اللّه تعالى ﴿**وَمَنْ حَوْلَها**﴾: موسى والملائكة.

وروي بإسناده عن ابن عباس: ﴿**وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ قال: الملائكة. قال: وروي عن عكرمة، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتاده مثل ذلك. وروى عن السدي وحده: ﴿**أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ**﴾، قال: كان في النار ملائكة.

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الجوهري، الطبري الأصل، البغدادي، الحافظ، ولد بعد السبعين ومائة، وثقه النسائي والخطيب، ومات سنة ٢٤٩هـ وقيل غير ذلك. [تهذيب التهذيب ١/ ١٢٣-١٢٥، سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٤٩-١٥١].

وفي صحيح مسلم عن أبي عُبَيْدة، عن أبي موسى ، قال : قام فينا رسول اللّه ﷺ بأربع كلمات فقال: « إن اللّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يَخْفِض القِسْط ويرفعه، يُرْفَع
٥/٤٦٣ إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل / عمل الليل، حِجَابُه النور- أو النار - لو كَشَفَه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1] . ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ وذكر من تفسير الوالبي عن ابن عباس: ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ** ﴾ ، يقول : قدس ، وعن مجاهد: ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ** ﴾ بوركت النار. كذلك كان يقول ابن عباس وفي السورة الأخرى : ذكر أنه ناداه من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وقوله: ﴿ **مِنَ الشَّجَرَةِ** ﴾ هو بدل من قوله: ﴿ **مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ** ﴾ [القصص: ٣٠] فالشجرة كانت فيه ، وقال أيضاً: ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ** ﴾ [مريم: ٥٢] والطور هو الجبل ، فالنداء كان من الجانب الأيمن من الطور ومن الوادي فإن شاطئ الوادي جانبه، وقال: ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ** ﴾ [القصص: ٤٤] أي: بالجانب الغربي، وجانب المكان الغربي ؛ فدل على أن هذا الجانب الأيمن هو الغربي لا الشرقي ، فذكر أن النداء كان من موضع معين وهو الوادي المقدس طوى من شاطئ الوادي الأيمن من جانب الطور الأيمن من الشجرة ، وذكر أنه قَرَّبه نَجيا فناداه وناجاه، وذلك المنادى له، والمناجى له، هو اللّه رب العالمين لا غيره، ونداؤه ومناجاته قائمة به ، ليس ذلك مخلوقاً منفصلا عنه ، كما يقوله من يقول : إن اللّه لا يقوم به كلام، بل كلامه منفصل عنه مخلوق ، وهو - سبحانه وتعالى - ناداه وناجاه ذلك الوقت، كما دل عليه القرآن ،لا كما يقوله من يقول : لم يزل منادياً مناجياً له، ولكن ذلك الوقت خلق فيه إدراك النداء القديم الذي لم يزل ولا يزال.

٥/٤٦٤ / فهذان قولان مبتدعان لم يقل واحداً منها أحد من السلف. وإذا كان المنادي هو اللّه رب العالمين، وقد ناداه من موضع معين وقربه إليه، دل ذلك على ما قاله السلف من قربه ودنوه من موسى - عليه السلام - مع أن هذا قرب مما دون السماء .

وقد جاء - أيضاً - من حديث وهب بن منبه وغيره من الإسرائيليات قربه من أيوب - عليه السلام - وغيره من الأنبياء - عليهم السلام - ولفظه - الذي ساقه البغوي - أنه أضله غمام ثم نودي : يا أيوب ، أنا اللّه، يقول :أنا قد دنوت منك، أنزل منك قريباً . لكن الإسرائيليات إنما تذكر على وجه المتابعة ، لا على وجه الاعتماد عليها وحدها، وهو- سبحانه وتعالى - قد وصف نفسه في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ بقربه من الداعي وقربه من المتقرب إليه، فقال تبارك وتعالى :﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا**

(١) سبق تخريجه ص ٥٠ .

دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦].

وثبت في «الصحيحين» عن أبي موسى ، أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال :«أيها الناس، اربْعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عُنُق راحلته»(١). وفي الصحيحين عن النبي ﷺ :«يقول اللّه تعالى : من تَقَرَّبَ إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليَّ ذِراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَةً»(٢).

٥/٤٦٥ / وقربه من العباد بتقربهم إليه مما يقر به جميع من يقول : إنه فوق العرش ، سواء قالوا مع ذلك : إنه تقوم به الأفعال الاختيارية أو لم يقولوا .

وأما من ينكر ذلك :

فمنهم من يفسر قرب العباد بكونهم يقاربونه ويشابهونه من بعض الوجوه فيكونون قريبين منه، وهذا تفسير أبي حامد والمتفلسفة؛ فإنهم يقولون: الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة.

ومنهم من يفسر قربهم بطاعتهم، ويفسر قربه بإثابته. وهذا تفسير جمهور الجهمية؛ فإنهم ليس عندهم قرب ولا تقريب أصلاً.

ومما يدخل في معاني القرب ـ وليس في الطوائف من ينكره ـ قرب المعروف والمعبود إلى قلوب العارفين العابدين؛ فإن كل من أحب شيئاً فإنه لابد أن يعرفه ويقرب من قلبه، والذي يبغضه يبعد من قلبه. لكن هذا ليس المراد به أن ذاته نفسها تحل في قلوب العارفين العابدين، وإنما في القلوب معرفته وعبادته ومحبته، والإيمان به؛ ولكن العلم يطابق المعلوم.

وهذا الإيمان الذي في القلوب هو «المثل الأعلى» الذي له في السموات والأرض ، وهو معنى قوله تعالى :﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾[الزخرف: ٨٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾[الأنعام : ٣].

٥/٤٦٦ / وقد غلط في هذه الآية طائفة من الصوفية والفلاسفة وغيرهم، فجعلوه حلول الذات واتحادها بالعابد والعارف، من جنس قول النصارى في المسيح ،وهو قول باطل، كما قد بسط في موضعه.

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٨٣ .

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته هو القول المعروف للسلف والأئمة، وهو قول الأشعري وغيره من الكُلابية؛ فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته، وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته، ونحو ذلك، ويقولون: الاستواء فعل فعله في العرش فصار مستوياً على العرش. وهذا ـ أيضاً ـ قول ابن عقيل ، وابن الزاغوني، وطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم.

وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده؛ فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله ، واستواءه على العرش. وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر.

وأول من أنكر هذا في الإسلام الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة، وكانوا ينكرون الصفات والعلو على العرش، ثم جاء ابن كُلاب فخالفهم في ذلك ،وأثبت الصفات والعلو على العرش، لكن وافقهم على أنه لا تقوم به الأمور الاختيارية؛ ولهذا أحدث قوله في القرآن : أنه قديم لم يتكلم به بقدرته. ولا يعرف هذا القول عن أحد من السلف، بل المتواتر عنهم أن القرآن كلام اللّه غير/ مخلوق، وأن اللّه يتكلم بمشيئته ٥/٤٦٧
وقدرته، كما ذكرت ألفاظهم في كتب كثيرة في مواضع غير هذا.

فالذين يثبتون أنه كلم موسى بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً به، هم الذين يقولون :إنه يدنو ويقرب من عباده بنفسه. وأما من قال: القرآن مخلوق أو قديم ،فأصل هؤلاء أنه لا يمكن أن يقرب من شيء ولا يدنو إليه، فمن قال منهم بهذا مع هذا، كان من تناقضه؛ فإنه لم يفهم أصل القائلين بأنه قديم.

وأهل الكلام قد يعرفون من حقائق أصولهم ولوازمها ما لا يعرفه من وافقهم على أصل المقالة، ولم يعرف حقيقتها ولوازمها؛ فلذا يوجد كثير من الناس يتناقض كلامه في هذا الباب. فإن نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف متظاهرة بالإثبات، وليس على النفي دليل واحد: لا من كتاب ولا من سنة ولا من أثر، وإنما أصله قول الجهمية، فلما جاء ابن كُلاب فرق، ووافقه كثير من الناس على ذلك، فصار كثير من الناس يقر بما جاء عن السلف وما دل عليه الكتاب والسنة، وبما يقوله النفاة مما يناقض ذلك، ولا يهتدي للتناقض: ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[البقرة :٢١٣].

وبهذا يحصل الجواب عما احتج به من قال: إن ثلث الليل يختلف باختلاف البلاد ـ وهذا قد احتج به طائفة ـ وجعلوا هذا دليلاً على ما يتأولون عليه حديث النزول . وهذا الذي ذكروه إنما يصح إذا جعل نزوله من جنس /نزول أجسام الناس من السطح إلى ٥/٤٦٨

الأرض، وهو يشبه قول من قال : يخلو العرش منه بحيث يصير بعض المخلوقات فوقه وبعضها تحته!

فإذا قدر النزول هكذا كان ممتنعاً؛ لما ذكروه من أنه لا يزال تحت العرش في غالب الأوقات أو جميعها، فإن بين طرفي العمارة نحو ليلة؛ فإنه يقال: بين ابتداء العمارة من المشرق ومنتهاها من المغرب مقدار مائة وثمانين درجة فلكية، وكل خمس عشرة فهي ساعة معتدلة، والساعة المعتدلة هي ساعة من اثنتي عشرة ساعة بالليل أو النهار، إذا كان الليل والنهار متساويين ـ كما يستويان في أول الربيع الذي تسميه العرب الصيف، وأول الخريف الذي تسميه الربيع ـ بخلاف ما إذا كان أحدهما أطول من الآخر، وكل واحد اثنتا عشرة ساعة ، فهذه الساعات مختلفة في الطول والقصر، فتغرب الشمس عن أهل المشرق قبل غروبها عن أهل المغرب ، كما تطلع على هؤلاء قبل هؤلاء بنحو اثنتي عشرة ساعة أو أكثر .

فإن الشمس على أي موضع كانت مرتفعة من الأرض الارتفاع التام ـ كما يكون عند نصف النهار ـ فإنها تضيء على ما أمامها و خلفها من المشرق والمغرب تسعين درجة شرقية وتسعين غربية، والمجموع مقدار حركتها : اثنتا عشرة ساعة، ستة شرقية ، وستة غربية ، وهو النهار المعتدل.

ولا يزال لها هذا النهار ،لكن يخفى ضوؤها بسبب ميلها إلى جانب الشمال / والجنوب، فإن المعمور من الأرض من الناحية الشمالية من الأرض التي هي شمال خط ٥/٤٦٩
الاستواء المحاذي لدائرة معتدل النهار التي نسبتها إلى القطبين ـ الشمالي والجنوبي ـ نسبة واحدة ؛ ولهذا يقال في حركة الفلك: إنها على ذلك المكان دولابية مثل الدولاب ، وأنها عند القطبين رحاوية تشبه حركة الرَّحَى، وأنها في المعمور من الأرض حمائلية تشبه حمائل السيوف. والمعمور المسكون من الأرض ، يقال : إنه بضع وستون درجة أكثر من السدس بقليل.

والكلام على هذا لبسطه موضع آخر، ذكرنا فيه دلالة الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وسائر من تبعهم من علماء المسلمين على أن الفلك مستدير. وقد ذكر إجماع علماء المسلمين على ذلك غير واحد، منهم الإمام أبو الحسين بن المنادي الذي له نحو «أربعمائة مصنف » وهو من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد، وأبو محمد بن حزم ، وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم.

والمقصود هنا أن الشمس إذا طلعت على أول البلاد الشرقية،فإنه ـ حينئذ ـ يكون إما

وقت غروبها وإما قريباً من وقت غروبها على آخر البلاد الغربية، فإنها تكون بحيث يكون الضوء أمامها تسعين درجة وخلفها تسعين درجة ، فهذا منتهى نورها. فإذا طلعت عليهم كان بينها وبينهم تسعون درجة، وكذلك على بلد تطلع عليه، والحاسب يفرق بين الدرجات كما يفرق بين الساعات، فإن الساعات المختلفة الزمانية كل واحد منها خمس عشرة درجة بحسب ذلك الزمان/ ، فيكون بينها وبين المغرب أيضاً تسعون درجة من ناحية المغرب، وإذا صار بينها وبين مكان تسعون درجة غربية غابت ، كما تطلع إذا كان بينها وبينهم تسعون درجة شرقية، وإذا توسطت عليهم ـ وهو وقت استوائها قبل أن تَدْلُكَ[1] وتَزِيغَ ويدخل وقت الظهر ـ كان لها تسعون درجة شرقية وتسعون درجة غربية. ٥/٤٧٠

وإذا كان كذلك ـ والنزول المذكور في الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام الذي اتفق عليه الشيخان: البخاري ومسلم ، واتفق علماء الحديث على صحته: هو « إذا بقى ثلث الليل الآخر»[2]، وأما رواية النصف والثلثين فانفرد بها مسلم في بعض طرقه، وقد قال الترمذي : إن أصح الروايات عن أبي هريرة: « إذا بقى ثلث الليل الآخر» . وقد روى عن النبي ﷺ من رواية جماعة كثيرة من الصحابة كما ذكرنا قبل هذا ؛ فهو حديث متواتر عند أهل العلم بالحديث ، والذي لا شك فيه إذا بقى ثلث الليل الآخر.

فإن كان النبى ﷺ قد ذكر«النزول» أيضا إذا مضى ثلث الليل الأول وإذا انتصف الليل؛ فقوله حق وهو الصادق المصدوق، ويكون النزول أنواعاً ثلاثة: الأول إذا مضى ثلث الليل الأول، ثم إذا انتصف وهو أبلغ، ثم إذا بقى ثلث الليل، وهو أبلغ الأنواع الثلاثة.

ولفظ «الليل والنهار» في كلام الشارع إذا أطلق، فالنهار من طلوع الفجر،/ كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ** ﴾[هود: ١١٤]، وكما في قوله ﷺ: «صم يوماً وأفطر يوماً»[3] وقوله: «كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[4] ونحو ذلك، فإنما أراد صوم النهار من طلوع الفجر، وكذلك وقت صلاة الفجر، وأول وقت الصيام بالنقل المتواتر المعلوم للخاصة والعامة والإجماع الذي لا ريب فيه بين الأمة ، ٥/٤٧١

---

(١) أى تميل عن الاستواء . انظر: المصباح المنير، مادة «دلك».

(٢) سبق تخريجه ص ٣٨ .

(٣) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٨)، ومسلم فى الصيام (١١٥٩/ ١٨١)، وأبو داود فى الصوم (٢٤٢٧)، والنسائى فى الصيام (٢٣٩٢، ٢٣٩٣)، وأحمد ٢/ ١٨٨ ، كلهم عن عمرو بن العاص.

(٤) البخارى فى الأدب (٦٠٠٦)، والترمذى فى البر والصلة (١٩٦٩)، وقال: « حديث حسن غريب صحيح». عن صفوان بن سليم يرفعه إلى النبى ﷺ.

وكذلك في مثل قوله ﷺ: «صلاة الليل مَثْنَى مَثْنَى، فإذا خِفْتَ الصبح فأوتر بركعة»[1]. ولهذا قال العلماء ـ كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ـ : إن صلاة الفجر من صلاة النهار.

وأما إذا قال الشارع ﷺ : « نصف النهار » فإنما يعني به النهار المبتدئ من طلوع الشمس، لا يريد قط ـ لا في كلامه ولا في كلام أحد من علماء المسلمين بنصف النهار ـ النهار الذي أوله من طلوع الفجر؛ فإن نصف هذا يكون قبل الزوال ؛ ولهذا غلط بعض متأخري الفقهاء ـ لما رأى كلام العلماء أن الصائم المتطوع يجوز له أن ينوي التطوع قبل نصف النهار؛ وهل يجوز له بعده؟ على قولين هما روايتان عن أحمد ـ ظن أن المراد بالنهار هنا نهار الصوم الذي أوله طلوع الفجر. وسبب غلطه في ذلك أنه لم يفرق بين مسمى النهار إذا أطلق ، وبين مسمى نصف النهار، فالنهار الذي يضاف إليه نصف في كلام الشارع وعلماء أمته هو من طلوع الشمس، والنهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر.

٥/٤٧٢ والنبى ﷺ لما أخبر بالنزول إذا بقى ثلث الليل ، فهذا الليل/ ـ المضاف إليه الثلث يظهر أنه من جنس النهار المضاف إليه النصف ـ وهو الذي ينتهي إلى طلوع الشمس ، وكذلك لما قال النبى ﷺ: «وقت العشاء إلى نصف الليل»[2] أو «إلى الثلث»[3]، فهو هذا الليل. وكذلك الفقهاء إذا أطلقوا ثلث الليل ونصفه؛ فهو كإطلاقهم نصف النهار. وهكذا أهل الحساب لا يعرفون غير هذا.

وقد يقال: بل هو الليل المنتهى بطلوع الفجر كما في الحديث الصحيح: « أفضل القيام قيام داود؛ كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[4]. واليوم المعتاد المشروع إلى طلوع الشمس بل إلى طلوع الفجر. فإن كان المراد بالحديث هذا، وحينئذ فإذا قدر ثلث الليل في أول المشرق يكون قبل طلوع الشمس عليهم بأربع ساعات ، وقد قال النبي ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفرله؟ حتى يطلع الفجر»[5]. فقد أخبر بدوامه إلى طلوع الفجر، وفي رواية : « إلى أن ينصرف القارئ من

---

(١) البخارى فى الوتر (٩٩٠)، ومسلم فى صلاة المسافرين(٧٤٩/ ١٤٥) عن ابن عمر.

(٢) مسلم فى المساجد (٦١٢/ ١٧١ ـ ١٧٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) مسلم فى المساجد (٦١٣/ ١٧٦، ١٧٧) عن سليمان بن بردة عن أبيه .

(٤) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠)، ومسلم فى الصيام (١١٥٩/ ١٨٩) ، وأبو داود فى الصوم (٢٤٤٨) ، وابن ماجه فى الصيام (١٧١٢) ، كلهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٥) سبق تخريجه ص ٣٨ .

صلاة الفجر»[1]. وقد قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] تشهده ملائكة الليل والنهار، وقد قيل: يشهده اللّه وملائكته.

وإذا كان هذا النزول يدوم نحو سدس عند أولئك، فهكذا هو عند كل قوم إذا مضى ثلثا ليلهم يدوم عندهم سدس الزمان، وأما النزول الذي في النصف أو الثلثين، فإنه يدوم ربع الزمان أو ثلثه، فهو أكثر دواماً من ذلك./ وإن أريد الليل المنتهى بطلوع ٥/٤٧٣
الشمس، كان وقت النزول أقل من ذلك فيكون قريباً من ثمن الزمان وتُسعه، وعلى رواية النصف والثلث يكون قريباً من سدسه وربعه وأكثر من ذلك.

ومعلوم أن زمن ثلث ليل البلد الشرقي قبل ثلث ليل البلد الغربي كما قد عرف، والعمارة طولها اثنتا عشرة ساعة، مائة وثمانون درجة، فلو قدر أن لكل مقدار ساعة ـ وهو خمس عشرة درجة من المعمور ـ ثلثا غير ثلث مقدار الساعة الأخرى، لكان المعمور ستة وثلاثين ثلثاً، والنزول يدوم في كل ثلث مقدار سدس الزمان، فيلزم أن يكون النزول يدوم ليلاً ونهاراً، أنه يدوم بقدر الليل والنهار ست مرات، إذا قدر أن لكل طول ساعة من المعمور ثلثاً فكيف النزول الإلهي إلى السماء الدنيا لدعاء عباده الساكنين في الأرض؟

فكل أهل بلد من البلاد يبقى نزوله ودعاؤه لهم: هل من سائل؟ هل من داع؟ هل من مستغفر؟ سدس الزمان، والبلاد من المشرق إلى المغرب كثيرة. والإسلام ـ وللّه الحمد ـ قد انتشر من المشرق إلى المغرب، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «زُوِيَتْ لي الأرض، مشارقها ومغاربها، وسَيَبْلُغ مُلْكُ أمتي ما زُوِي لي منها»[2].

وإنما ذكرنا هذا لأنه قد يقال: إن هذا «النزول، والدعاء» إنما هو لعباده المؤمنين الذين يعبدونه ويسألونه ويستغفرونه؛ كما أن «نزول عَشِيَّة/عَرَفَة»[3] إنما هو لعباده المؤمنين الذين ٥/٤٧٤
يحجون إليه، وكما أن رمضان إذا دخل فتحت أبواب الجنة لعباده المؤمنين الذين يصومون رمضان، وعنهم تغلق أبواب النار، وتُصَفَّد[4] شياطينهم، وأما الكفار الذين يستحلون إفطار شهر رمضان ولا يرون له حرمة ومزية فلا تفتح لهم فيه أبواب الجنة ولا تغلق عنهم

---

(١) الدارمي في الصلاة ١/٣٤٦، ٣٤٧، وأحمد ٢/ ٥٠٤، كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) مسلم في الفتن (٢٨٨٩/ ١٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢)، وأحمد ٥/ ٢٧٨، ٢٨٤، كلاهما عن ثوبان.
وقوله: «زُوِيَتْ»: أي جُمِعت. انظر: النهاية ٢/ ٣٢٠.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٤) أي: تُوثق وتُقيَّد. انظر: القاموس، مادة «صفد».

فيه أبواب النار، ولا تصفد شياطينهم.

وليس المقصود هنا بسط هذا المعنى ، بل المقصود أن النزول إن كان خاصاً بالمؤمنين، فهم ـ وللّه الحمد ـ من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإن كان عاماً ؛ فهو أبلغ ، فعلى كل تقدير لابد أن يدوم النزول الإلهى على أهل كل بلد مقدار سدس الزمان أو أكثر. فإنه إذا قيل : ليل صيفهم قصير، قيل :وليل شتائهم طويل ، فيعادل هذا هذا،وما نقص من ليل صيفهم زيد فى ليل شتائهم؛ولهذا جاء فى الأثر:« الشتاء ربيع المؤمن؛ يصوم نهاره، ويقوم ليله»(١).

وإذا كان كذلك ، فلو كان النزول كما يتخيله بعض الجهال من أنه يصير تحت السموات وفوق السماء الدنيا وتحت العرش مقدار ثلث الليل على كل بلد ، لم يكن اللازم أنه لا يزال تحت العرش وتحت السموات فقط ؛ فإن هذا إنما يكون وحده هو اللازم إذا كان كل سدس من المعمور لهم كلهم ثلث واحد، وكان المجموع ستة أثلاث، فإذا قدر بقاؤه على هؤلاء مقدار ثلث ، ثم على هؤلاء الآخرين مقدار ثلث، لزم ألا يزال تحت العرش ، أو تحت السموات، أو حيث تخيل الجاهل أن اللّه محصور فيه، فلا يكون قط فوق العرش .

/ وأما إذا كان لكل بلد ثلث غير الثلث الآخر، وأن أول كل بلد بعد الثلث الآخر، ٥/٤٧٥
يقدر ما بينهما ، وكذلك آخر ثلث ليل البلد الشرقى ينقضى قبل انقضاء ثلث ليل البلد الغربى ، وأيضاً، إن كانت مداخلة، فلابد أن يدوم النزول على كل بلد ثلث ليلهم إلى طلوع فجرهم، فيلزم من ذلك أن يقدر أثلاث بقدر عدد البلاد.

وأيضا ، فكما أن ثلث الليل يختلف بطول البلد، فهو يختلف بعرضها أيضاً. فكلما كان البلد أدخل فى الشمال ، كان ليله فى الشتاء أطول ، وفى الصيف أقصر . وما كان قريباً من خط الاستواء يكون ليله فى الشتاء أقصر من ليل ذاك وليله فى الصيف أطول من ليل ذاك ، فيكون ليلهم ونهارهم أقرب إلى التساوي.

وحينئذ، فالنزول الإلهى لكل قوم هو مقدار ثلث ليلهم، فيختلف مقداره بمقادير الليل فى الشمال والجنوب، كما اختلف فى المشرق والمغرب . وأيضاً ، فإنه إذا صار ثلث الليل عند قوم، فبعده بلحظة ثلث الليل عند ما يقاربهم من البلاد، فيحصل النزول الإلهى الذى أخبر به الصادق المصدق ـ أيضاً ـ عند أولئك إذا بقى ثلث ليلهم، وهكذا إلى آخر العمارة.

---

(١) أحمد ٣/ ٧٥، وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٠٣:«رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن» عن أبى سعيد الخدري.

فلو كان كما توهمه الجاهل ،من أنه يكون تحت العرش ، وتكون فوقه السماء وتحته السماء ؛ لكان هذا ممتنعاً من وجوه كثيرة:

٥/٤٧٦ / منها: أنه لا يكون فوق العرش قط بل لا يزال تحته، ومنها: أنه يجب على هذا التقدير أن يكون الزمان بقدر ما هو مرات كثيرة جداً ليقع كذلك، ومنها: أنه مع دوام نزوله إلى سماء هؤلاء إلى طلوع فجرهم، إن أمكن مع ذلك، أن يكون قد نزل على غيرهم أيضاً ،ممن ثلث ليلهم يخالف ثلث هؤلاء فى التقديم والتأخير والطول والقصر.

فهذا خلاف ما تخيلوه، فإنهم لا يمكنهم أن يتخيلوا نازلاً كنزول العباد، من يكون نازلا على سماء هؤلاء ثلث ليلهم، وهو ـ أيضاً ـ فى تلك الساعة نازلاً على سماء آخرين، مع أنه يجب أن يتقدم على أولئك أو يتأخر عنهم، أو يزيد أو يقصر.

وحكى عن بعض الجهال أنه قيل له : فالسموات كيف حالها عند نزوله ؟ قال : يرفعها ، ثم يضعها ، وهو قادر على ذلك . فهؤلاء الذين يتخيلون ما وصف رسول الله ﷺ به ربه أنه مثل صفات أجسامهم، كلهم ضالون، ثم يصيرون قسمين:

قسم علموا أن ذلك باطل، وظنوا أن هذا ظاهر النص ومدلوله، وأنه لا يفهم منه معنى إلا ذلك ، فصاروا : إما أن يتأولوه تأويلاً يحرفون به الكلم عن مواضعه. وإما أن يقولوا : لا يفهم منه شىء ، ويزعمون أن هذا مذهب السلف .

٥/٤٧٧ / ويقولون: إن قوله: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾[آل عمران:٧] يدل على أن معنى المتشابه لا يعلمه إلا اللّه، والحديث منه متشابه ـ كما فى القرآن ـ وهذا من متشابه الحديث، فيلزمهم أن يكون الرسول الذى تكلم بحديث النزول لم يَدْرِ هو ما يقول ، ولا ما عنى بكلامه ـ وهو المتكلم به ابتداء . فهل يجوز لعاقل أن يظن هذا بأحد من عقلاء بنى آدم؟! فضلاً عن الأنبياء ! فضلا عن أفضل الأولين والآخرين ، وأعلم الخلق، وأفصح الخلق، وأنصح الخلق للخلق ﷺ ؟! وهم مع ذلك يدعون أنهم أهل السنة، وإن هذا القول الذى يصفون به الرسول وأمته هو قول أهل السنة.

ولا ريب أنهم لم يتصوروا حقيقة ما قالوه ولوازمه. ولو تصوروا ذلك لعلموا أنه يلزمهم ما هو من أقبح أقوال الكفار فى الأنبياء ، وهم لا يرتضون مقالة من ينتقص النبى ﷺ، ولو تنقصه أحد لاستحلوا قتله. وهم مصيبون فى استحلال قتل من يقدح فى الأنبياء عليهم السلام، وقولهم يتضمن أعظم القَدْح ؛ لكن لم يعرفوا ذلك. ولازم القول ليس بقول ، فإنهم لو عرفوا أن هذا يلزمهم ما التزموه.

وقسم ثان، من الممثلين للّه بخلقه، لما رأوا أن قول هؤلاء منكر، وأن قول الرسول ﷺ حق، قالوا مثل تلك الجهالات : من أنه تصير فوقه سماء وتحته سماء ، أو أن السموات ترتفع ثم تعود ، ونحو ذلك مما يظهر بطلانه لمن له أدنى عقل ولُبٍّ .

٥/٤٧٨ / وقد ثبت فى الصحيحين أنه ينزل ، وفى لفظ :« ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر» (١) ، وفى حديث آخر : « أقرب ما يكون الرب من عبده فى جَوْف الليل الآخر»(٢)، وفى صحيح مسلم :« إن اللّه ينزل إلى سماء الدنيا حين يمضى ثلث الليل»(٣)، وفى صحيح مسلم ـ أيضاً ـ: « إذا مضى شَطْر الليل أو ثلثاه، ينزل اللّه إلى سماء الدنيا»(٤) فما ذكر من تقدم اختلاف الليل فى البلاد، يبطل قول من يظن أنه يخلو منه العرش ،ويصير تحت العرش أو تحت السماء.

وأما النزول ـ الذى لا يكون من جنس نزول أجسام العباد ـ فهذا لا يمتنع أن يكون فى وقت واحد لخلق كثير، ويكون قدره لبعض الناس أكثر ، بل لا يمتنع أن يقرب إلى خلق من عباده دون بعض ، فيقرب إلى هذا الذى دعاه دون هذا الذى لم يدعه. وجميع ما وصف به الرب ـ عز وجل ـ نفسه من القرب، فليس فيه ما هو عام لجميع المخلوقات كما فى المعية ؛ فإن المعية وصف نفسه فيها بعموم وخصوص .

وأما قربه مما يقرب منه،فهو خاص لمن يقرب منه ،كالداعى والعابد،وكقربه عشية عرفة،ودنوه إلى السماء الدنيا لأجل الحجاج،وإن كانت تلك العشية بعرفة قد تكون وسط النهار فى بعض البلاد،وتكون ليلا فى بعض البلاد؛فإن تلك البلاد لم يَدْنُ إليها،ولا إلى سمائها الدنيا،وإنما دنا إلى السماء الدنيا التى على الحُجَّاج،وكذلك نزوله بالليل.

٥/٤٧٩ وهذا كما أن حسابه لعباده يوم القيامة يحاسبهم كلهم فى ساعة واحدة، وكل/ منهم يخلو به كما يخلو الرجل بالقمر ليلة البدر فيقرره بذنوبه، وذلك المحاسب لا يرى أنه يحاسب غيره. كذلك قال أبو رزِين :للنبى ﷺ لما قال النبى ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر»، قال : يا رسول اللّه، كيف ونحن جميع وهو واحد ؟! فقال : «سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء اللّه ؛ هذا القمر كلكم يراه مخليا به ، فاللّه أكبر»(٥). وقال رجل لابن عباس ـ رضى اللّه عنه ـ كيف يحاسب اللّه العباد فى ساعة واحدة؟ قال : كما يرزقهم فى ساعة واحدة.

وكذلك ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «يقول اللّه :

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٨ .
(٢) سبق تخريجه ص ١٤٨ .
(٣) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨ / ١٦٩) .
(٤) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨ / ١٧٠) .
(٥) سبق تخريجه ص ٧١ .

قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ،فنصفها لي ونصفها لعبدي ،ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي ، فإذا قال العبد: الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى علي عبدي ، فإذا قال العبد :مالك يوم الدين؛ قال الله: مجدني عبدي ، فإذا قال العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ؛ قال : هذه بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم.صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»[1].

فهذا يقوله ـ سبحانه وتعالى ـ لكل مُصَلٍّ قرأ الفاتحة ، فلو صلى الرجل ما صلى من الركعات قيل له ذلك وفي تلك الساعة يصلي من يقرأ الفاتحة من / لا يحصى عدده إلا ٥/٤٨٠
الله، وكل واحد منهم يقول الله له كما يقول لهذا ، كما يحاسبهم كذلك ، فيقول لكل واحد ما يقول له من القول في ساعة واحدة . وكذلك سمعه لكلامهم يسمع كلامهم كله مع اختلاف لغاتهم ، وتفنن حاجاتهم، يسمع دعاءهم سمع إجابة ، ويسمع كل ما يقولونه سمع علم وإحاطة لا يشغله سمع عن سمع. ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، فإنه ـ سبحانه ـ هو الذي خلق هذا كله، وهو الذي يرزق هذا كله وهوالذي يوصل الغذاء إلى كل جزء جزء من البدن على مقداره وصفته المناسبة له ، وكذلك من الزرع.

وكرسيه قد وسع السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما، فإذا كان لا يؤوده خلقه ورزقه على هذه التفاصيل، فكيف يؤوده العلم بذلك ، أو سمع كلامهم، أو رؤية أفعالهم، أو إجابة دعائهم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[الزمر: ٦٧].

وهذه الآية مما تبين خطأ هؤلاء ، فإنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه، ويقول: أنا الملك، أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟!»[2].

/ وفي حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أبلغ من ذلك ، والسياق لمسلم عن النبي ﷺ أنه قال:«يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي ٥/٤٨١

(١) مسلم في الصلاة (٣٩٥ / ٣٨) . (٢) سبق تخريجه ص ١٨٨ .

الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟». رواه عن أبى بكر ابن أبى شيبة ، ورواه عثمان بن أبى شيبة قال : «يطوى اللّه السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين ثم يأخذهن بشماله فيقول: أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟»(١).

وفى حديث عبد اللّه بن مِقْسَم عن عبد اللّه بن عمر ، قال : رأيت النبى ﷺ على المنبر، وهو يقول :«يأخذ الجبار سمواته وأرضه ـ وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها ـ ويقول : أنا الرحمن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تك شيئاً، أنا الذى أعيدها، أين الجبارون أين المتكبرون؟»، ويتميل رسول اللّه على يمينه وعلى شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه حتى إنى أقول أساقط هو برسول اللّه ﷺ ؟ (٢). رواه ابن منده، وابن خزيمة، وعثمان بن سعيد الدارمى ، وسعيد بن منصور وغيرهم من الأئمة الحفاظ النقاد الجهابذة.

٥/٤٨٢ فإذا كان ـ سبحانه ـ يطوى السموات كلها بيمينه،وهذا قدرها عنده ـ كما / قال ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما ـ: ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى يد الرحمن إلا كخَرْدَلَة فى يد أحدكم، وهو ـ سبحانه ـ بين لنا من عظمته بقدر ما نعقله،كما قال عبد العزيز الماجشُون(٣):واللّه ، ما دلهم على عظيم ما وصف من نفسه،وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم ، أن ذلك الذى ألقى فى روعهم وخلق على معرفته قلوبهم.

وقد قال تعالى :﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾[الأنعام: ١٠٣] قال ابن أبى حاتم فى « تفسيره»:حدثنا أبو زُرْعَة، ثنا منْجَاب بن الحارث ، ثنا بشر بن عمارة عن أبى روق، عن عطية العوفي، عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى اللّه عنه ـ عن النبى ﷺ فى قوله سبحانه وتعالى:﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ قال:«لو أن الجن والإنس،والشياطين والملائكة؛منذ خلقوا إلى أن فَنُوا صُفُّوا صفاً واحداً ما أحاطوا باللّه أبداً»،فمن هذه عظمته، كيف يحصره مخلوق من المخلوقات،سماء أو غير سماء؟! حتى

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٩ .

(٢) أحمد ٢/ ٧٢، وصححه الشيخ شاكر (٥٤١٤) وانظر ما كتبه هناك ، والطبرانى (١٣٣٢١، ١٣٣٢٧).

(٣) هو عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون، الإمام المفتى الكبير، نزيل بغداد ، وسمى بالماجشون؛ لأن وجنتيه كانتا حمراوين - والماجشون تطلق على الثياب المُصَبَّغَة - وثقه أبو زرعة وأبو حاتم والنسائى وغيرهم، توفى ببغداد سنة ١٦٤هـ . [تهذيب التهذيب ٦/ ٣٤٣، ٣٤٤].

يقال: إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صار العرش فوقه، أو يصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به ـ سبحانه وتعالى.

فإذا قال القائل : هو قادر على ما يشاء ، قيل : فقل : هو قادر على أن ينزل ـ سبحانه وتعالى ـ وهو فوق عرشه، وإذا استدللت بمطلق القدرة والعظمة من غير تمييز، فما كان أبلغ فى القدرة والعظمة، فهو أولى بأن يوصف به مما ليس/ كذلك؛ فإن من ٥/٤٨٣
توهم العظيم ـ الذى لا أعظم منه ـ يقدر على أن يصغر حتى يحيط به مخلوقه الصغير، وجعل هذا من باب القدرة والعظمة ، فقوله : إنه ينزل مع بقاء عظمته وعلوه على العرش، أبلغ فى القدرة والعظمة ، وهو الذى فيه موافقة الشرع والعقل .

وهذا كما قد يقوله طائفة ـ منهم أبو طالب المكى ـ قال :إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه شيء، وإن أراد عرفه كل شيء ، وإن لم يرد لم يعرفه شيء ، إن أحب وجد عند كل شيء، وإن لم يحب لم يوجد عند شيء، وقد جاوز الحد والمعيار، وسبق القيل والأقدار ، ذو صفات لا تحصى ، وقدر لا يتناهى ، ليس محبوساً فى صورة، ولا موقوفاً بصفة، ولا محكوماً عليه بكلم ، ولا يتجلى بوصف مرتين،ولا يظهر فى صورة لاثنين، ولا يرد منه بمعنى واحد كلمتان، بل لكل تجل منه صورة ، ولكل عبد عند ظهوره صفة،وعن كل نظرة كلام، وبكل كلمة إفهام ،ولا نهاية لتجليه، ولا غاية لأوصافه.

قلت : أبو طالب ـ رحمه اللّه ـ هو وأصحابه « السالمية» أتباع الشيخ أبى الحسن بن سالم صاحب سهل بن عبد اللّه التُّسْتَرى ، لهم من المعرفة والعبادة والزهد واتباع السنة والجماعة فى عامة المسائل المشهورة لأهل السنة ما هم معروفون به ، وهم منتسبون إلى إمامين عظيمين فى السنة؛ الإمام أحمد بن حنبل ، وسهل بن عبد اللّه التسترى ، ومنهم من تفقه على مذهب مالك بن أنس كبيت الشيخ أبى محمد وغيرهم، وفيهم من هو على مذهب الشافعى .

/فالذين ينتسبون إليهم، أو يعظمونهم، ويقصدون متابعتهم ،أئمة هدى ـ رضوان اللّه ٥/٤٨٤
عليهم أجمعين. وهم فى ذلك كأمثالهم من أهل السنة والجماعة .

وقل طائفة من المتأخرين إلا وقع فى كلامها نوع غلط ؛ لكثرة ما وقع من شبه أهل البدع ؛ ولهذا يوجد فى كثير من المصنفات فى أصول الفقه، وأصول الدين، والفقه ، والزهد ، والتفسير ، والحديث ، من يذكر فى الأصل العظيم عدة أقوال ، ويحكى من مقالات الناس ألواناً ، والقول الذى بعث اللّه به رسوله لا يذكره؛ لعدم علمه به ؛ لا لكراهته لما عليه الرسول .

وهؤلاء وقع فى كلامهم أشياء ، أنكروا بعض ما وقع من كلام أبى طالب فى الصفات ـ من نحو الحلول وغيره ـ أنكرها عليهم أئمة العلم والدين ونسبوهم إلى الحلول من أجلها ؛ ولهذا تكلم أبو القاسم بن عساكر فى أبى على الأهوازى لما صنف هذا مثالب أبى الحسن الأشعرى ، وهذا مناقبه ، وكان أبو على الأهوازى من السالمية فنسبهم طائفة إلى الحلول. والقاضى أبو يعلى له كتاب صنفه فى الرد على السالمية.

وهم فيما ينازعهم المنازعون فيه ـ كالقاضى أبى يعلى وغيره، وكأصحاب الأشعري، وغيرهم من ينازعهم ـ من جنس تنازع الناس ، تارة يرد عليهم حق وباطل ، وتارة يرد عليهم حق من حقهم ، وتارة يرد باطل بباطل ، وتارة يرد باطل بحق .

٥/٤٨٥ / وكذلك ذكر الخطيب البغدادى فى « تاريخه» أن جماعة من العلماء أنكروا بعض ما وقع فى كلام أبى طالب فى الصفات. وما وقع فى كلام أبى طالب من الحلول سرى بعضه إلى غيره من الشيوخ، الذين أخذوا عنه كأبى الحكم بن بَرَّجَان ونحوه .

وأما أبو إسماعيل الأنصارى ـ صاحب «منازل السائرين» ـ فليس فى كلامه شىء من الحلول العام، لكن فى كلامه شىء من الحلول الخاص فى حق العبد العارف الواصل إلى ما سماه هو : « مقام التوحيد»، وقد باح منه بما لم يبح به أبو طالب ، لكن كنى عنه.

وأما «الحلول العام» ففى كلام أبى طالب قطعة كبيرة منه، مع تبريه من لفظ الحلول، فإنه ذكر كلاماً كثيراً حسناً فى التوحيد كقوله: عالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حى لا يموت، قيوم لا يغفل، حليم لا يسفه، سميع بصير، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت ، آخر بغير حدّ ، كائن لم يزل ، إلى أن قال : وإنه أمام كل شىء، ووراء كل شىء ، وفوق كل شىء ، ومع كل شىء ، ويسمع كل شىء، وأقرب إلى كل شىء من ذلك الشىء ، وإنه مع ذلك غير محل للأشياء، وأن الأشياء ليست محلاً له ، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه ، وأنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير، وبكل شىء محيط.

٥/٤٨٦ وذكر كلاماً آخر يتعلق بالمخلوقات وإحاطة بعضها ببعض بحسب ما رآه،/ ثم قال : واللّه ـ جل جلاله وعظم شأنه ـ هو ذات منفرد بنفسه ، متوحد بأوصافه، بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شىء ، ليس فى الخلق إلا الخلق ولا فى الذات إلا الخالق.

قلت : وهذا ينفى الحلول كما نفاه أولاً .

ثم قال:

فصل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموقنين

فشهادة الموقن يقينه أن اللّه هو الأول من كل شيء، وأقرب من كل شيء، فهو المعطى المانع، الهادى المضل ، لا معطى ولا مانع ولا ضار ولانافع إلا اللّه، كما لا إله إلا اللّه ، ويشهد قرب اللّه منه ونظره إليه، وقدرته عليه وحيطته به ، فسبق نظره وهمه إلى اللّه قبل كل شيء، ويذكره فى كل شيء، ويخلو قلبه له من كل شيء ، ويرجع إليه بكل شيء، ويتأله إليه دون كل شيء، ويعلم أن اللّه أقرب إلى القلب من وريده، وأقرب إلى الروح من حياته،وأقرب إلى البصر من نظره، وأقرب إلى اللسان من ريقه بقرب هو وصفه لا يتقرب ولا يقرب .

وأنه ـ تعالى ـ على العرش فى ذلك كله ، وأنه رفيع الدرجات من الثَّرَى ، كما هو رفيع الدرجات من العرش ، وأن قربه من الثرى ومن كل شيء كقربه من/ العرش ، وأن ٥/٤٨٧
العرش غير ملاصق له بحس ، ولا تمكن فيه ، ولا يذكر فيه بوجس ولا ناظر إليه بعين ، ولا يحاط به فيدرك ؛ لأنه ـ تعالى ـ محتجب بقدرته عن جميع بريته، ولا نصيب للعرش منه إلا كنصيب موقن عالم به ، واجد لما أوجده منه من أن اللّه عليه، وأن العرش مطمئن به، وأن اللّه محيط بعرشه فوق كل شيء، وفوق تحت كل شيء ، فهو فوق الفوق، تحت التحت، لا يحد بتحت فيكون له فوق ؛ لأنه العلى الأعلى.

أين كان لايخلو من علمه وقدرته مكان، ولا يحد بمكان، ولا يفقد من مكان، ولا يوجد بمكان، فالتحت للأسفل،والفوق للأعلى.

وهو ـ سبحانه ـ فوق كل فوق فى العلو ، وفوق كل تحت فى السمو ، هو فوق ملائكة الثرى ، كما هو فوق ملائكة العرش والأماكن الممكنات، ومكانه مشيئته ووجوده قدرته، والعرش والثرى فما بينهما ، هو حد للخلق الأسفل والأعلى بمنزلة خردلة فى قبضته، وهو أعلى من ذلك محيط بجميع ذلك، كما لايدركه العقل ولا يكيفه الوهم، ولا نهاية لعلوه، ولا فوق لسموّه، ولا بعد فى دنوه.

إلى أن قال : وإن اللّه لا يحجبه شيء عن شيء ، ولا يبعد عليه شيء ، قريب من كل شيء بوصفه، وهو القدرة والدراك، والأشياء مبعدة بأوصافها؛/وهو البعد ٥/٤٨٨
والحجب، فالبعد والإبعاد حكم مشيئته، والحدود والأقطار حجب بريته.

إلى أن قال :﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمٰوٰتِ وَفِى الأَرْضِ** ﴾ [الأنعام : ٣]، ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى**

الْعَرْشِ ﴾[الفرقان : ٥٩]، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] غير متصل بالخلق ولا مفارق ، وغير مماس للكون ولا متباعد ، بل منفرد بنفسه ، متوحد بوصفه، لا يزدوج إلى شيء، ولا يقترن به شيء، أقرب من كل شيء بقرب هو وصفه، وهو محيط بكل شيء بحيطة هي نعته، وهو مع كل شيء، وفوق كل شيء ، وأمام كل شيء، ووراء كل شيء ؛ بعلوه ودنوه، وهو قربه، فهو وراء الحول الذى هو وراء حملة العرش ، وهو أقرب من حبل الوريد الذى هو الروح، وهو مع ذلك فوق كل شيء وهو محيط بكل شيء، وليس هو تعالى فى هذا مكاناً لشيء ولا مكاناً له شيء ، وليس كمثله فى كل هذا شيء، لا شريك له فى ملكه ولا معين له فى خلقه، ولا نظير له فى عباده ، ولا شبيه له فى إيجاده، وهو أول فى آخريته بأولية هي صفته، وآخر فى أوليته بآخرية هي نعته، وباطن فى ظهوره بباطنية هي قربه، وظاهر فى باطنيته بظهور هو علوه، لم يزل كذلك أولا ، ولا يزال كذلك آخراً، ولم يزل كذلك باطناً ، ولا يزال كذلك ظاهراً.

إلى أن قال : هو على عرشه بإخباره لنفسه؛ فالعرش حد خلقه الأعلى وهو غير محدود بعرشه ؛ والعرش محتاج إلى مكان ، والرب ـ عز وجل ـ غير محتاج إليه ؛ كما قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] الرحمن اسم، والاستواء/ نعته، متصل بذاته والعرش خلقه منفصل عن صفاته ، ليس بمضطر إلى مكان يسعه ولا حامل يحمله. ٥/٤٨٩

إلى أن قال : وهو لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا فى أنوار صفته، ولا يوجد إلا فى سعة البسطة. فإذا قبض أخفى ما أبدى، وإذا بسط أعاد ما أخفى . وكذلك جعله فى كل رسم كون، وفعله بكل اسم مكان، ومما جل فظهر ومما دق فاستتر، لا يسعه غير مشيئته بقربه ، ولا يعرف إلا بشهوده، ولا يرى إلا بنوره، هذا لأوليائه اليوم بالغيب فى القلوب، ولهم ذلك عند المشاهدة بالأبصار، ولا يعرف إلا بمشيئته، إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن لم يشأ لم يسعه كل شيء، إن أراد عرفه كل شيء ، وإن لم يرد لم يعرفه شيء، إن أحب وجد عند كل شيء ، وإن لم يحب لم يوجد بشيء. وذكر تمام كلامه كما حكيناه من قبل .

قلت : وهذا الذى ذكره من قربه وإطلاقه، وأنه لايتجلى بوصف مرتين ولا يظهر فى صورة لاثنين ، هو حكم ما يظهر لبعض السالكين من قربه إلى قلوبهم، وتجليه لقلوبهم ـ لا أن هذا هو وصفه فى نفس الأمر، وأنه كما تحصل هذه التجليات المختلفة تحصل يوم القيامة للعيون .

وهذا الموضع مما يقع الغلط فيه لكثير من السالكين ، يشهدون أشياء بقلوبهم فيظنون أنها موجودة فى الخارج هكذا ،حتى إن فيهم خلقاً منهم من المتقدمين والمتأخرين يظنون
٥/٤٩٠ أنهم يرون اللّه بعيونهم ؛ لما يغلب على قلوبهم / من المعرفة والذكر والمحبة،يغيب بشهوده فيما حصل لقلوبهم ، ويحصل لهم فناء واصطلام ، فيظنون أن هذا هو أمر مشهود بعيونهم ، ولا يكون ذلك إلا فى القلب ؛ولهذا ظن كثير منهم أنه يرى اللّه بعينه فى الدنيا.

وهذا مما وقع لجماعة من المتقدمين والمتأخرين، وهو غلط محض حتى أورث مما يدعيه هؤلاء شكاً عند أهل النظر والكلام الذين يجوزون رؤية اللّه فى الجملة ، وليس لهم من المعرفة بالسنة ما يعرفون به ؛ هل يقع فى الدنيا أو لا يقع ؟ فمنهم من يذكر فى وقوعها فى الدنيا قولين ، ومنهم من يقول يجوز ذلك. وهذا كله ضلال ؛ فإن أئمة السنة والجماعة متفقون من أن اللّه لا يراه أحد بعينه فى الدنيا ولم يتنازعوا إلا فى نبينا ﷺ خاصة. وقد روى نفى رؤيتنا له فى الدنيا عن النبى ﷺ من عدة أوجه، منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ ، أنه قال ـ لما ذكر الدجال ـ قال :« واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»[1] وموسى بن عمران ـ عليه السلام ـ قد سأل الرؤية ، فذكر اللّه ـ سبحانه ـ قوله: ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وما أصاب موسى من الصعق .

وهؤلاء منهم من يقول : إن موسى رآه ، وإن الجبل كان حجابه ، فلما جعل الجبل دكا رآه ، وهذا يوجد فى كلام أبى طالب ونحوه. ومنهم من يجعل الرائى هو المرئى،
٥/٤٩١ فهو اللّه فيذكرون اتحاداً، وأنه أفنى موسى عن نفسه حتى/ كان الرائى هو المرئى فما رآه عندهم موسى ،بل رأى نفسه بنفسه، وهذا يدعونه لأنفسهم.

والاتحاد والحلول باطل . وعلى قول من يقول به إنما هذا فى الباطن والقلب، لا فى الظاهر ؛ فإن غاية ذلك ما تقوله النصارى فى المسيح، ولم يقولوا: إن أحداً رأى اللاهوت الباطن المُتدَرِّع [2] بالناسوت.

وهذا الغلط يقع كثيراً فى السالكين. يقع لهم أشياء فى بواطنهم فيظنونها فى الخارج فى ذلك بمنزلة الغالطين من نظار المتفلسفة ونحوهم؛ حيث يتصورون أشياء بعقولهم كالكليات والمجردات ونحو ذلك، فيظنونها ثابتة فى الخارج ، وإنما هى فى نفوسهم ؛ ولهذا يقول أبو القاسم السهيلى وغيره: نعوذ باللّه من قياس فلسفى ، وخيال صوفى .

---

(١) مسلم فى الفتن (٢٩٣٠ / ٩٥) .

(٢) أي: المتلبس ، وفيها معنى الدخول فى الشيء. انظر: القاموس ، مادة « درع».

ولهذا يوجد التناقض الكثير فى كلام هؤلاء وهؤلاء. وأما الذين جمعوا الآراء الفلسفية الفاسدة والخيالات الصوفية الكاسدة كابن عربى وأمثاله، فهم من أضل أهل الأرض؛ ولهذا كان الجنيد ـ رضى اللّه عنه ـ سيد الطائفة إمام هدى، فكان قد عرف ما يعرض لبعض السالكين ، فلما سئل عن التوحيد قال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم.

٥/٤٩٢ فبين أنه يميز المحدث عن القديم تحذيراً عن الحلول والاتحاد . فجاءت / الملاحدة ـ كابن عربى ونحوه ـ فأنكروا هذا الكلام على الجنيد ؛ لأنه يبطل مذهبهم الفاسد. والجنيد وأمثاله أئمة هدى ، ومن خالفه فى ذلك فهو ضال ، وكذلك غير الجنيد من الشيوخ تكلموا فيما يعرض للسالكين، وفيما يرونه فى قلوبهم من الأنوار وغير ذلك ، وحذروهم أن يظنوا أن ذلك هو ذات اللّه ـ تعالى .

وقد خطب عروة بن الزبير من عبد اللّه بن عمر ابنته، وهو فى الطواف، فقال: أتحدثنى فى النساء، ونحن نتراءى اللّه فى طوافنا ؟! فهذا كله وما أشبهه لم يريدوا به أن القلب ترفع جميع الحجب بينه وبين اللّه حتى تكافح الروح ذات اللّه كما يرى هو نفسه؛ فإن هذا لا يمكن لأحد فى الدنيا ، ومن جوز ذلك إنما جوزه للنبى ﷺ؛ كقول ابن عباس: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين، ولكن هذا التجلى يحصل بوسائط بحسب إيمان العبد ومعرفته وحبه؛ ولهذا تتنوع أحوال الناس فى ذلك كما تتنوع رؤيتهم للّه تعالى فى المنام، فيراه كل إنسان بحسب إيمانه ، ويرى فى صور متنوعة.

فهذا الذى قاله أبوطالب وهؤلاء، إذا قيل مثله فيما يحصل فى القلوب، كان مقارباً، مع أن فى بعض ذلك نظراً. وإما أن يقال: إن الرب ـ تعالى ـ فى نفسه هوكذلك، فليس الأمر كذلك.

٥/٤٩٣ أما قوله : أقرب إلى الروح من حياته، وأقرب إلى البصر من نظره وإلى/ اللسان من ريقه بقرب هو وصفه، وقوله : أقرب من حبل الوريد، فهذا ليس فى كتاب اللّه ولا سنة رسول اللّه ﷺ ، ولا قاله أحد من السلف، لا من الصحابة ، ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا الأئمة الأربعة وأمثالهم من أئمة المسلمين، ولا الشيوخ المقتدى بهم من شيوخ المعرفة والتصوف . وليس فى القرآن وصف الرب ـ تعالى ـ بالقرب من كل شىء أصلا، بل قربه الذى فى القرآن خاص لا عام؛ كقوله تعالى : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة : ١٨٦] فهو سبحانه قريب ممن دعاه.

وكذلك ما فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى سفر،

فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ؛ فقال : « يأيها الناس ، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عُنُق راحلته»(١) فقال: «إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم» لم يقل: إنه قريب إلى كل موجود، وكذلك قول صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ (٢) ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] هو كقول شعيب: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] ، ومعلوم أن قوله: ﴿قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ مقرون بالتوبة والاستغفار، أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه، كما أنه رحيم ودود بهم ، وقد قرن القريب بالمجيب، ومعلوم أنه لا يقال: إنه مجيب لكل موجود، و إنما الإجابة لمن سأله ودعاه، فكذلك قربه ـ سبحانه وتعالى .

٥/٤٩٤ / وأسماء اللّه المطلقة؛ كاسمه السميع، والبصير، والغفور ، والشكور، والمجيب، والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه ، واسمه العليم لما كان كل شىء يصلح أن يكون معلوماً تعلق بكل شىء .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ـ ١٨]؛ وقوله: ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٣ـ٨٥]، فالمراد به قربه إليه بالملائكة ، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، قالوا : ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة، وقد قال طائفة : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بالعلم ، وقال بعضهم: بالعلم والقدرة، ولفظ بعضهم: بالقدرة والرؤية .

وهذه الأقوال ضعيفة؛فإنه ليس فى الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود، حتى يحتاجوا أن يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية، ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شىء، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شىء ، قادر على كل شىء .

٥/٤٩٥ وكأنهم ظنوا أن لفظ «القرب» مثل لفظ «المعية»، فإن لفظ المعية فى سورة / الحديد والمجادلة فى قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤]، وقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ

(١) سبق تخريجه ص ٨٣ .

(٢) فى المطبوعة :«فاستغفروا ربكم» والصواب ما أثبتناه.

﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [المجادلة :٧].

وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا : هو معهم بعلمه ، وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله ، وهو مأثور عن ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان، وسفيان الثورى ، وأحمد ابن حنبل وغيرهم.

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبى ، ثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مَعْمَر ،عن نوح بن ميمون المضروب ، عن بُكَيْر بن معروف ، عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله :﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ قال: هو على العرش وعلمه معهم. قال: وروى عن سفيان الثورى أنه قال : علمه معهم . وقال : حدثنا أبى ، قال: حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقي[1] حدثنا نوح بن ميمون المضروب [2]، ثنا بُكَيْر بن معروف ، عن مقاتل بن حيان، عن الضحاك بن مزاحم، فى قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ أَيْنَ مَا كانُوا﴾ / قال : هو على العرش وعلمه معهم. ورواه بإسناد آخر عن مقاتل بن حيان هذا، وهو ثقة فى التفسير ليس بمجروح، كما جرح مقاتل بن سليمان. ٥/٤٩٦

وقال عبد اللّه بن أحمد: ثنا أبى ، ثنا نوح بن ميمون المضروب ، عن بكير بن معروف ، ثنا أبو معاوية،عن مقاتل بن حيان،عن الضحاك فى قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُو سادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كانُوا﴾ قال: هوعلى العرش وعلمه معهم. وقال على بن الحسن بن شقيق: حدثنا عبد اللّه بن موسى صاحب عبادة ، ثنا مَعْدان ـ قال ابن المبارك : إن كان أحد بخراسان من الأبدال فمعدان ـ قال: سألت سفيان الثورى عن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]؛ قال : علمه.

وقال حنبل بن إسحاق فى كتاب «السنة» : قلت لأبى عبد اللّه أحمد بن حنبل : ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ و ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾

---

(١) أحمد بن إبراهيم الدورقى العبدي، والد المحدث الثقة عبد الله بن أحمد ، روى عنه مسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم ، ووثقه العقيلى والخليلى وغيرهما، مات سنة ٢٤٦ هـ . [تهذيب التهذيب ١/ ١٠ ، سير أعلام النبلاء ١٢ / ١٣٠ ـ ١٣٣].

(٢) هو أبو سعيد نوح بن ميمون بن عبد الحميد بن أبى الرجال العجلى البغدادي، ويقال: المروزى ، المعروف بالمضروب ـ لضربة كانت بوجهه ـ وثقه ابن حبان والخطيب وغيرهما. توفى سنة ٢١٨ هـ . [تهذيب التهذيب ٤٨٩/١٠].

إلى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة :٧] قال: علمه، عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء ، شاهد . علام الغيوب، يعلم الغيب ، ربنا على العرش بلا حد ولا صفة ، وسع كرسيه السموات و الأرض.

وقد بسط الإمام أحمد الكلام على معنى المعية فى «الرد على الجهمية». ولفظ المعية فى كتاب اللّه جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين، وجاء خاصاً كما فى قوله:/ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل :١٢٨] وقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] وقوله :﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠]. فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص ؛ فإنه قد علم أن قوله:﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أراد به تخصيصه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار، وكذلك قوله:﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار. ٥/٤٩٧

وأيضا ، فلفظ «المعية» ليست فى لغة العرب ولا شيء من القرآن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى؛ كما فى قوله :﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح :٢٩]، وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء:١٤٦]، وقوله:﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقوله:﴿ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾[الأنفال:٧٥] . ومثل هذا كثير ؛ فامتنع أن يكون قوله:﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق. وأيضا، فإنه افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم بهم.

وقد بسط الكلام عليه فى موضع آخر، وبين أن لفظ المعية فى اللغة ـ وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ـ فهو إذا كان مع العباد لم يناف ذلك علوه على عرشه، ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه. فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد .

وقد قال ابن أبى حاتم : قرأت على محمد بن الفضل : حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شَقِيق ، ثنا محمد بن مُزاحم ، ثنا بُكَيْر بن معروف، عن مقاتل بن سليمان / /فى قوله تعالى :﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾من المطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾من النبات ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من القطر﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ما يصعد إلى السماء من الملائكة ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ يعنى بقدرته وسلطانه وعلمه معكم أينما كنتم. ٥/٤٩٨

وبهذا الإسناد عن مقاتل بن سليمان قال:بلغنا ـ واللّه أعلم ـ فى قوله تعالى :﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾ قال: قبل كل شيء﴿ وَالآخِرُ﴾ قال : بعد كل شيء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ قال :فوق كل

شيء ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ قال : أقرب من كل شيء ؛ وإنما نعنى بالقرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد :٣] يعلم نجواهم ويسمع كلامهم ، ثم ينبئهم يوم القيامة بكل شيء نطقوا به ، سيِّئ أو حسن.

وهذا ليس مشهوراً عن مقاتل كشهرة الأول الذى روى عنه من وجوه لم يجزم بما قاله، بل قال : بلغنا ، وهو الذى فسر الباطن بالقريب ، ثم فسر القرب بالعلم والقدرة، ولا حاجة إلى هذا . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء» (١)وجاء عن النبى ﷺ من حديث أبى هريرة وأبى ذر ـ رضى اللّه عنهما ـ فى تفسير هذه الأسماء ، وحديث « الإدلاء» ما قد بسطنا القول عليه فى (مسألة الإحاطة).

٥/٤٩٩ / وكذلك هذا الحديث ذكره قتادة فى تفسيره، وهو يبين أنه ليس معنى الباطن أنه القرب، ولا لفظ الباطن يدل على ذلك ، ولا لفظ القرب فى الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية، ولا لفظ القرب فى اللغة والقرآن كلفظ المعية؛ فإنه إذا قال: هذا مع هذا؛ فإنه يعنى به المجامعة والمقارنة والمصاحبة،ولا يدل على قرب إحدى الذاتين من الأخرى،ولا اختلاطها بها؛فلهذا كان إذا قيل: هو معهم، دل على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم، وهو مع ذلك فوق عرشه، كما أخبر القرآن والسنة بهذا. وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء ، فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الأشياء .

وكذلك فى حديث « الأوعال»(٢) الذى فى «السنن» قال النبى ﷺ : « واللّه فوق عرشه ويعلم ما أنتم عليه»(٣) ،ولم يأت فى لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه وهو قريب من كل شيء، بل قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة :١٨٦]، وقال النبى ﷺ :«إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذى تدعونه سميع قريب»(٤).

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

(٢) جمع الوَعْل ، وهو تيس الجبل . انظر :القاموس، مادة «وعل».

(٣) سبق تخريجه ص ١٣ .

(٤) سبق تخريجه ص ٨٣ .

٥/٥٠٠ قال ابن أبى حاتم : ثنا أبى ، ثنا يحيى بن المغيرة ، ثنا جرير ، عن عبدة بن/ أبى بَرْزَةَ السجستاني، عن الصلت بن حكيم، عن أبيه، عن جده، قال: جاء رجل إلى النبىﷺ فقال : يارسول اللّه، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه ؟فسكت النبى ﷺ؛ فأنزل اللّه تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِي**﴾[البقرة: ١٨٦](١). إذا أمرتهم أن يدعونى فدعونى أستجيب لهم.

ولا يقال فى هذا : قريب بعلمه وقدرته؛ فإنه عالم بكل شىء ، قادر على كل شىء، وهم لم يشكوا فى ذلك ولم يسألوا عنه، وإنما سألوا عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ فأخبر أنه قريب مجيب.

وطائفة من أهل السنة تفسر «القرب» فى الآية والحديث بالعلم؛ لكونه هو المقصود ؛ فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعى حصل مقصوده ، وهذا هو الذى اقتضى أن يقول من يقول : إنه قريب من كل شىء، بمعنى العلم والقدرة؛ فإن هذا قد قاله بعض السلف، كما تقدم عن مقاتل بن حيان وكثير من الخلف، لكن لم يقل أحد منهم: إن نفس ذاته قريبة من كل شىء . وهذا المعنى يقر به جميع المسلمين، من يقول : إنه فوق العرش ، ومن يقول: إنه ليس فوق العرش .

وقد ذكر ابن أبى حاتم بإسناده عن عبد العزيز بن عبد اللّه بن أبى سلمة الماجشُون
٥/٥٠١ قال: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[طه: ٥] يعلم وهو كذلك ما توسوس به/ أنفسنا منا، وهو بذلك أقرب إلينا من حبل الوريد ،وكيف لا يكون كذلك وهو أعلم بما توسوس به أنفسنا منا، فكيف بحبل الوريد؟! وكذلك قال أبو عمرو الطلمنكى ، قال: ومن سأل عن قوله : ﴿ **ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق:١٦] فاعلم أن ذلك كله على معنى العلم به والقدرة عليه . والدليل من ذلك صدر الآية ، فقال اللّه تعالى :﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾؛ لأن اللّه لما كان عالماً بوسوسته،كان أقرب إليه من حبل الوريد ،وحبل الوريد لا يعلم ما توسوس به النفس.

ويلزم الملحد على اعتقاده أن يكون معبوده مخالطاً لدم الإنسان ولحمه، وألا يجرد الإنسان تسمية المخلوق حتى يقول : خالق ومخلوق؛ لأن معبوده بزعمه داخل حبل الوريد من الإنسان وخارجه، فهو على قوله ممتزج به غير مباين له .

قال : وقد أجمع المسلمون من أهل السنة على أن اللّه على عرشه، بائن من جميع خلقه ، وتعالى اللّه عن قول أهل الزيغ، وعما يقول الظالمون علواً كبيراً .

---

(١) الدر المنثور ١ / ١٩٤ ، وابن جرير الطبرى فى التفسير ٢ / ٩٢ .

قال : وكذلك الجواب فى قوله فيمن يحضره الموت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة :٨٥] أى بالعلم به والقدرة عليه، إذ لا يقدرون له على حيلة/ ولا ٥/٥٠٢
يدفعون عنه الموت، وقد قال تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾[الأنعام :٦١]، وقال تعالى :﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة :١١].

قلت: وهكذا ذكر غير واحد من المفسرين مثل الثعلبى وأبى الفرج بن الجوزى وغيرهما فى قوله :﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، وأما فى قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ فذكر أبو الفرج القولين : أنهم الملائكة ، وذكره عن أبى صالح عن ابن عباس، وأنه القرب بالعلم.

وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات البارى ـ جل وعلا ـ قريبة من وريد العبد ومن الميت، ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون قرب الملائكة فسروا ذلك بالعلم والقدرة كما فى لفظ المعية ، ولا حاجة إلى هذا ؛ فإن المراد بقوله :﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أى بملائكتنا فى الآيتين ، وهذا بخلاف لفظ المعية، فإنه لم يقل : ونحن معه، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا ، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض، وهو نفسه الذى استوى على العرش، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ،مع تفريق القرآن بينهما.

وكذلك قال أبو حامد موافقاً لأبى طالب المكى فى بعض ما قال ، مخالفاً له فى البعض ؛ فإنه من نفاة علو اللّه نفسه على العرش، وإنما المراد عنده أنه قادر عليه مستول عليه ، أو أنه أفضل منه. قال : وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله/ والمعنى ٥/٥٠٣
الذى أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار، والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطيف قدرته، مقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى ، فوقيته لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شىء شهيد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل فى شىء ، ولا يحل فيه شىء، إلى أن قال :

وإنه بائن بصفاته من خلقه ، ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه ذاته.

قلت : فالفوقية التى ذكرها فى القدرة والاستيلاء « فوقية القدرة»، وهو أنه أفضل المخلوقات ، و«القرب» الذى ذكره هو العلم أو هو العلم والقدرة . وثبوت علمه وقدرته

واستيلائه على كل شيء هو مما اتفق عليه المسلمون، وتفسير قربه بهذا قاله جماعة من العلماء، لظنهم أن القرب فى الآية هو قربه وحده، ففسروها بالعلم لما رأوا ذلك عاماً. قالوا: هو قريب من كل موجود بمعنى العلم، وهذا لا يحتاج إليه كما تقدم، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ؛ فإن من كان بالشيء أعلم من غيره لا يقال : إنه أقرب إليه من غيره لمجرد علمه به، ولا لمجرد قدرته عليه .

٥/٥٠٤ / ثم إنه ـ سبحانه وتعالى ـ عالم بما يسر من القول وما يجهر به، وعالم بأعماله، فلا معنى لتخصيص حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ؛ فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه.

قال تعالى : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٣، ١٤] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾[التوبة: ٧٨]، وقال تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧].

ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم ؛ أنه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[ق: ١٦، ١٧] ،فأخبر أنه يعلم ما توسوس به نفسه، ثم قال : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فأثبت العلم؛ وأثبت القرب وجعلهما شيئين، فلا يجعل أحدهما هو الآخر. وقيد القرب بقوله : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

٥/٥٠٥ / وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، أو أن ذاته أقرب إلى الميت من أهله فهذا فى غاية الضعف؛ وذلك أن الذين يقولون : إنه فى كل مكان، أو إنه قريب من كل شيء بذاته، لا يخصون بذلك شيئاً دون شيء، ولا يمكن مسلماً أن يقول : إن الله قريب من الميت دون أهله، ولا إنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء.

وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم، وهو عندهم في جميع بدن الإنسان، أو قريب من جميع بدن الإنسان ، أو هو في أهل الميت كما هو في الميت ، فكيف يقول : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟! وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ؟!

وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة ؛ فإنه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨]. فقيد القرب بهذا الزمان، وهو زمان تلقي المتلقيين، قعيد عن اليمين، وقعيد عن الشمال، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان كما قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ .

ومعلوم أنه لو كان المراد قرب ذات الرب لم يختص ذلك بهذه الحال، ولم يكن لذكر القعيدين والرقيب والعتيد معنى مناسب .

وكذلك قوله في الآية الأخرى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ / تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾[الواقعة: ٨٣-٨٥] ، فلو أراد قرب ذاته لم يخص ذلك بهذه الحال، ولا قال : ﴿ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ ؛ فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر في بعض الأحوال ولكن نحن لا نبصره، والرب ـ تعالى ـ لا يراه في هذه الحال، لا الملائكة ولا البشر. ٥/٥٠٦

وأيضاً ،فإنه قال : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذه الحال . وذات الرب ـ سبحانه وتعالى ـ إذا قيل : هي في مكان ، أو قيل : قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، ولا يكون أقرب إلى شيء من شيء.

ولا يجوز أن يراد به قرب الرب الخاص ،كما في قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبده، وهذا المحتضر قد يكون كافراً أو فاجراً أو مؤمناً أو مقرباً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾[الواقعة: ٨٨ ـ٩٤] ، ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصه الرب بقربه منه دون من حوله، وقد يكون حوله قوم مؤمنون، وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾[النساء: ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا

الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا / أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام: ٩٣] ،وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]. ٥/٥٠٧

ومما يدل على ذلك: أنه ذكره بصيغة الجمع، فقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وهذا كقوله سبحانه: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[القصص:٣]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾[يوسف: ٣] ،وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[القيامة :١٧-١٩].

فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره اللّه ـ تعالى ـ في كتابه دل على أن المراد أنه ـ سبحانه ـ يفعل ذلك بجنوده وأعوانه من الملائكة؛ فإن صيغة «نحن» يقولها المتبوع المطاع العظيم الذي له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو ـ سبحانه ـ العالم بما توسوس به نفسه، وملائكته تعلم؛ فكان لفظ «نحن» هنا هو المناسب.

وكذلك قوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ فإنه سبحانه يعلم ذلك ، وملائكته يعلمون ذلك كما ثبت في الصحيحين عن النبيﷺ أنه قال: « إذا همَّ العبد بحسنة كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر / حسنات، وإذا همَّ بسيئة لم تكتب عليه ،فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، وإن تركها للّه كتبت حسنة»(١). فالملك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة، وليس ذلك من علمهم بالغيب الذي اختص اللّه به، وقد روى عن ابن عيينة أنهم يشمون رائحة طيبة فيعلمون أنه همَّ بحسنة، ويشمون رائحة خبيثة فيعلمون أنه همَّ بسيئة، وهم وإن شموا رائحة طيبة ورائحة خبيثة، فعلمهم لا يفتقر إلى ذلك ، بل مافي قلب ابن آدم يعلمونه، بل ويبصرونه ويسمعون وسوسة نفسه، بل الشيطان يلتقم قلبه، فإذا ذكر اللّه خَنَس(٢) ، وإذا غفل قلبه عن ذكره وسوس، ويعلم هل ذكر اللّه أم غفل عن ذكره ؟ ويعلم ما تهواه نفسه من شهوات الغي فيزينها له . ٥/٥٠٨

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث ذكر صفية ـ رضي اللّه عنها ـ:« إن

(١) سبق تخريجه ص ١٤٥ .

(٢) أي انقبض وتأخر . انظر: المصباح المنير ، مادة « خنس».

الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1].

وقرب الملائكة والشيطان من قلب ابن آدم مما تواترت به الآثار ، سواء كان العبد مؤمنا أو كافراً . وإما أن تكون ذات الرب في قلب كل أحد كافر أو مؤمن فهذا باطل، لم يقله أحد من سلف الأمة ولا نطق به كتاب ولا سنة ، بل الكتاب والسنة وإجماع السلف مع العقل يناقض ذلك.

ولهذا لما ذكر اللّه ـ سبحانه ـ قربه من داعيه وعابديه قال: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة: ١٨٦] ،فهنا هو نفسه ـ سبحانه/ وتعالى ـ ٥/٥٠٩
القريب الذي يجيب دعوة الداع لا الملائكة، وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[2].

وذلك لأن اللّه ـ سبحانه ـ قريب من قلب الداعي ،فهو أقرب إليه من عنق راحلته. وقربه من قلب الداعي له معنى متفق عليه بين أهل الإثبات الذين يقولون: إن اللّه فوق العرش ، ومعنى آخر فيه نزاع.

فالمعنى المتفق عليه عندهم يكون بتقريبه قلب الداعي إليه، كما يقرب إليه قلب الساجد؛ كما ثبت في الصحيح :«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[3]فالساجد يقرب الرب إليه فيدنو قلبه من ربه، وإن كان بدنه على الأرض. ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر صار الآخر إليه قريباً بالضرورة. وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته، كما أن من قرب من مكة قربت مكة منه.

وقد وصف اللّه أنه يقرب إليه من يقربه من الملائكة والبشر، فقال: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [النساء: ١٧٢] ، وقال: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾[الواقعة: ١٠ ، ١١]، وقال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ** ﴾[الواقعة: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [المطففين : ٢٨]، وقال: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** ﴾[مريم: ٥٢].

/ وأما قرب الرب قرباً يقوم به بفعله القائم بنفسه، فهذا تنفيه الكُلابية ومن يمنع قيام ٥/٥١٠
الأفعال الاختيارية بذاته. وأما السلف وأئمة الحديث والسنة ،فلا يمنعون ذلك، وكذلك

---

(١) البخارى فى الأحكام (٧١٧١) .

(٢) سبق تخريجه ص ٨٣ .

(٣) سبق تخريجه ص ٨٤ .

كثير من أهل الكلام.

فنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا، ونزوله عشية عرفة، ونحو ذلك هو من هذا الباب؛ ولهذا حد النزول بأنه إلى السماء الدنيا ، وكذلك تكليمه لموسى ـ عليه السلام ـ فإنه لو أريد مجرد تقريب الحجاج وقوام الليل إليه، لم يخص نزوله بسماء الدنيا ،كما لم يخص ذلك في إجابة الداعي وقرب العابدين له ، قال تعالى :﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة: ١٨٦].

وقال :« من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً»(١) وهذه الزيادة تكون على الوجه المتفق عليه ، بزيادة تقريبه للعبد إليه جزاء على تقربه باختياره . فكلما تقرب العبد باختياره قَدْر شبر زاده الرب قرباً إليه حتى يكون كالمتقرب بذراع. فكذلك قرب الرب من قلب العابد، وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب والإيمان به ، وهو المثل الأعلى، وهذا ـ أيضاً ـ لا نزاع فيه، وذلك أن العبد يصير محباً لما أحب الرب، مبغضاً لما أبغض ، موالياً لمن يوالي، معاديا لمن يعادي ، فيتحد مراده مع المراد المأمور به الذي يحبه اللّه ويرضاه.

وهذا مما يدخل في موالاة العبد لربه، وموالاة الرب لعبده . فإن الولاية ضد العداوة، والولاية تتضمن المحبة والموافقة، والعداوة تتضمن البغض / والمخالفة . وقد ثبت في ٥/٥١١ صحيح البخاري عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : «يقول اللّه تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»(٢).

فأخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يقرب العبد بالفرائض، ولا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه اللّه فيصير العبد محبوباً للّه،كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]،وقال تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿**فَأَتَمُّوا**(٣)

(١) سبق تخريجه ص ٨٣ .
(٢) سبق تخريجه ص ٨٤ .
(٣) فى المطبوعة :« وأتموا»، و الصواب ما أثبتناه.

إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٤]، وقال: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤]، وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[التوبة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٥/٥١٢ / فقد أخبر أنه يحب المتبعين لرسوله والمجاهدين في سبيله، وأنه يحب المتقين والصابرين والتوابين والمتطهرين، وهو ـ سبحانه ـ يحب كل ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

وقوله: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] يقتضي أنه ـ سبحانه ـ وجنده الموكلين بذلك يعلمون ما يوسوس به العبد نفسه، كما قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف: ٨٠] فهو يسمع، ومن يشاء من الملائكة يسمعون، ومن شاء من الملائكة.

وأما الكتابة فرسله يكتبون ، كما قال هاهنا: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[يس: ١٢]. فأخبر بالكتابة بقوله نحن؛ لأن جنده يكتبون بأمره. وفصل في تلك الآية بين السماع والكتابة لأنه يسمع بنفسه، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره والملائكة يكتبون.

فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ مثل قوله: ﴿نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره، كما كانوا يكتبون عمله بأمره ، قال ذلك ، وقربه من كل أحد بتوسط الملائكة كتكليمه كل أحد بتوسط الرسل ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[الشورى : ٥١].

٥/٥١٣ / فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذاك قربه إليهم عند الاحتضار، وعند الأقوال الباطنة في النفس والظاهرة على اللسان، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار: ١٠ـ ١٢].

وقد غلط طائفة ظنوا أنه نفسه الذي يسمع منه القرآن، وهو الذي يقرؤه بنفسه بلا واسطة عند قراءة كل قارئ ، كما غلطوا في القرب، وهم طائفة من متأخري أهل

الحديث ومتأخري الصوفية .

ومن الناس من يفسر قول القائلين :بأنه أقرب إلى كل شيء من نفس ذلك الشيء؛ بأن الأشياء معدومة من جهة أنفسها ، وإنما هي موجودة بخلق الرب ـ سبحانه وتعالى ـ لها ، وهي باقية بإبقائه ،وهو ـ سبحانه وتعالى ـ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا موجود إلا بإيجاده ، ولا باقي إلا بإبقائه. فلو قدر أنه لم يشأ خلقها وتكوينها لكانت باقية على العدم لا وجود لها أصلا، فصار هو أقرب إليها من ذواتها، فتكوين الشيء وخلقه وإيجاده هو فعل الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وبه كان الشيء موجوداً وكان ذاتاً محققة في الخارج . والموجود دائما محتاج إلى خالقه لا يستغنى عنه طرفة عين ،فكان موجوداً بنسبته إلى خالقه، ومعدوماً بنسبته إلى نفسه، فإنه بالنظر إلى نفسه لا يستحق إلا العدم، فكان الرب أقرب إلى المخلوقات من المخلوقات إلى أنفسها بهذا الاعتبار.

وقد يفسر بعضهم قوله تعالى :﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾[القصص:٨٨] بهذا المعنى؛ فإن الأشياء كلها بالنظر إلى أنفسها عدم محض ، ونفي صرف، وإنما هي
٥/٥١٤ موجودة / تامة بالوجه الذي لها إلى الخالق ، وهو تعلقها به ، وبمشيئته وقدرته، فباعتبار هذا الوجه كانت موجودة ، وبالوجه الذي يلي أنفسها لا تكون إلا معدومة.

وقد يفسرون بذلك قول لَبِيد:

ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل

ولا يقال : هذه المقالة صحيحة في نفسها ، فإنها لولا خلق اللّه للأشياء لم تكن موجودة ، ولولا إبقاؤه لها لم تكن باقية . وقد تكلم النظار في سبب افتقارها إليه :هل هو الحدوث ، فلا تحتاج إلا في حال الإحداث كما يقول ذلك من يقوله من الجهمية والمعتزلة ونحوهم ، أو هو الإمكان الذي يظن أنه يكون بلا حدوث بل بكون الممكن المعلول قديماً أزلياً،ويمكن افتقارها في حال البقاء بلا حدوث كما يقوله ابن سينا وطائفة.

وكلا القولين خطأ ،كما قد بسط في موضعه ، وبين أن الإمكان والحدوث متلازمان كما عليه جماهير العقلاء من الأولين والآخرين حتى قدماء الفلاسفة كأرسطو وأتباعه ؛ فإنهم أيضاً يقولون : إن كل ممكن فهو محدث ، وإنما خالفهم في ذلك ابن سينا وطائفة؛ ولهذا أنكر ذلك عليه إخوانه من الفلاسفة كابن رشد وغيره، والمخلوقات مفتقرة إلى الخالق، فالفقر وصف لازم لها دائما لا تزال مفتقرة إليه.

٥/٥١٥ / والإمكان والحدوث دليلان على الافتقار،لا أن هذين الوصفين جعلا الشيء مفتقراً

بل فقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علة ، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة ، وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر إلى علة، بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته إلا فقيرة فقراً لازماً لها، ولا يستغنى إلا باللّه.

وهذا من معاني (الصمد) ، وهو الذي يفتقر إليه كل شيء ، ويستغنى عن كل شيء. بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم ، وهذا تحقيق قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥].

فلو لم يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء ، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله، فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته ، وإلا كانت أعمالاً فاسدة؛ فإن الحركات تفتقر إلى العلة الغائية كما افتقرت إلى العلة الفاعلية، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلاً، ولولا ذلك لم يفعل.

فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات، بل كان العالم يفسد ، وهذا معنى قوله : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[الأنبياء: ٢٢] ولم يقل: لعدمتا ؛ وهذا معنى قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل

/ وهو كالدعاء المأثور :« أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل، إلا وجهك الكريم». ٥/٥١٦

ولفظ « الباطل» يراد به المعدوم ، ويراد به ما لا ينفع، كقول النبي ﷺ :« كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته لزوجته ، فإنهن من الحق »(١).

وقوله عن عمر ـ رضي اللّه عنه ـ: « إن هذا الرجل لا يحب الباطل»(٢) ، ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال : إذا ميز اللّه يوم القيامة الحق من الباطل في أيهما يجعل الغناء ؟ قال السائل : من الباطل . قال : ﴿**فماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ**﴾

---

(١) الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٧) ، وقال: « حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١١)، والدارمي في الجهاد ٢/ ٢٠٤، ٢٠٥ ، وأحمد ٢/ ١٤٤، ١٤٨، كلهم عن عقبة بن عامر الجهني.

(٢) أحمد ٣/ ٤٣٥، وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٦٩ :«رواه أحمد والطبراني بنحوه. . . . ورجالهما ثقات ، وفي بعضهم خلاف».

[يونس: ٣٢]، ومنه قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

فإن الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع ، والمقصود منها لايحصل، فهو باطل ، واعتقاد ألوهيتها باطل ، أي غير مطابق ، واتصافها بالإلهية في أنفسها باطل، لا بمعنى أنه معدوم.

ومنه قوله تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨]، وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء : ٨١] ، فإن الكذب باطل لأنه غير مطابق،وكل فعل ما لا ينفع باطل ؛لأنه ليس له غاية موجودة محمودة.

٥/٥١٧ / فقول النبى ﷺ : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل»(١)

هذا معناه:أن كل معبود من دون اللّه باطل، كقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[الحج :٦٢] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢]، وقد قال قبل هذا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[يونس: ٣٠]، كما قال في الأنعام: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ(٢) الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]، وقال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد :٣].

ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود ـ وهو مريض ـ فقال : كيف تجدك ؟ قال: أجدني مردوداً إلى اللّه مولاي الحق ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٢٤، ٢٥]، وقد أقروا بوجوده في الدنيا ، لكن في ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه ؛ ولهذا قال :﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ بصيغة الحصر ، فإنه يومئذ لا يبقى أحد يدعي فيه الإلهية، ولا أحد يشرك بربه أحداً.

---

(١) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٤١)، ومسلم فى الشعر (٢٢٥٦/ ٢-٦)، والترمذى فى الأدب (٢٨٤٩) وقال: «حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه فى الأدب (٢٧٥٧)، وأحمد ٢/ ٢٤٨، ٣٩١، كلهم عن أبى هريرة.

(٢) فى المطبوعة : «أحدهم» ، والصواب ما أثبتناه.

/ فصـــل

وإذا عرف تنزيه الرب عن صفات النقص مطلقاً ، فلا يوصف بالسُّفُول ولا علو شيء عليه بوجه من الوجوه، بل هوالعلي الأعلى الذي لا يكون إلا أعلى ، وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء كما أخبر النبي ﷺ ، وأنه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من الأفعال اللازمة والمتعدية، لا النزول ولا الاستواء ولا غير ذلك ، فيجب مع ذلك إثبات ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ، والأدلة العقلية الصحيحة توافق ذلك لا تناقضه، ولكن السمع والعقل يناقضان البدع المخالفة للكتاب والسنة، والسلف ، بل الصحابة والتابعون لهم بإحسان كانوا يقرون أفعاله من الاستواء والنزول وغيرهما على ما هي عليه.

قال أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره: ثنا عصام بن الرَّوَّاد ، ثنا آدم، ثنا أبو جعفر، عن الربيع ، عن أبي العالية، ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ** ﴾ يقول : ارتفع. قال : وروي عن الحسن ـ يعني البصري ـ والربيع بن أنس مثله كذلك .

٥/٥١٩ وذكر البخاري في صحيحه في « كتاب التوحيد» قال : قال أبو العالية:/ ﴿ **اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ** ﴾: ارتفع فسوى خلقهن . وقال مجاهد : ﴿**اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ : علا على العرش [(١)]، وكذلك ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره في قوله: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ وروى بهذا الإسناد عن أبي العالية، وعن الحسن ،وعن الربيع مثل قول أبي العالية. وروى بإسناده ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ قال : في اليوم السابع .

وقال أبو عمرو الطلمنكي : وأجمعوا ـ يعني أهل السنة والجماعة ـ على أن للّه عرشاً، وعلى أنه مستو على عرشه، وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه. قال : فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى :﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ** ﴾ ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه، وأن اللّه فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء.

قال : وقال أهل السنة في قوله : ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه: ٥]: الاستواء من اللّه على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز ، واستدلوا بقول اللّه : ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ**﴾[المؤمنون: ٢٨]، وبقوله: ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ**﴾ [الزخرف: ١٣]، وبقوله: ﴿**وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**﴾[هود: ٤٤] ، إلا أن المتكلمين من

---

(١) البخارى فى التوحيد معلقًا (الفتح ١٣/ ٤٠٣).

أهل الإثبات في هذا على أقوال : فقال مالك ـ رحمه اللّه ـ : إن الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة.

وقال عبد اللّه بن المبارك ـ ومن تابعه من أهل العلم ، وهم كثير ـ: إن معنى ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[يونس:٣]: استقر،وهو قول القتيبي،وقال غير هؤلاء:استوى أي ظهر.وقال /أبو عبيدة معمر بن المثني: استوى بمعنى: علا ، وتقول العرب : استويت ٥/٥٢٠
على ظهر الفرس ، بمعنى: علوت عليه، واستويت على سقف البيت، بمعنى علوت عليه، ويقال : استويت على السطح بمعناه، وقال اللّه تعالى :﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ ، وقال:﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾، وقال: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾،وقال: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ بمعنى علا على العرش.

وقول الحسن : وقول مالك من أنبل جواب وقع في هذه المسألة وأشده استيعابا؛ لأن فيه نبذ التكييف وإثبات الاستواء المعقول ، وقد ائتم أهل العلم بقوله واستجودوه واستحسنوه.

ثم تكلم على فساد قول من تأول ﴿اسْتَوَىٰ﴾ بمعنى :استولى.

وقال الثعلبي :وقال الكلبي ومقاتل : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني: استقر ، قال: وقال أبو عبيدة : صعد . وقيل: استولى . وقيل : ملك .واختار هو ما حكاه عن الفراء وجماعة أن معناه :أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه، قال : ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] أي: عمد إلى خلق السماء .

وهذا الوجه من أضعف الوجوه ، فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، وكذلك ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أنه قال : « كان اللّه ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض»(١)./ فإذا كان العرش مخلوقاً قبل خلق ٥/٥٢١
السموات والأرض، فكيف يكون استواؤه عمده إلى خلقه له؛ لو كان هذا يعرف في اللغة: أن استوى على كذا بمعنى أنه عمد إلى فعله، وهذا لا يعرف قط في اللغة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، لا في نظم ولا في نثر .

ومن قال : استوى بمعنى: عمد ، ذكره في قوله :﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾؛ لأنه عدى بحرف الغاية ، كما يقال :عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا

(١) سبق تخريجه ص ٩٣ .

يقال : عمدت على كذا ولا قصدت عليه ، مع أن ما ذكر في تلك الآية لا يعرف في اللغة أيضاً ، ولا هو قول أحد من مفسري السلف ، بل المفسرون من السلف قولهم بخلاف ذلك كما قدمناه عن بعضهم.

وإنما هذا القول وأمثاله ابتدع في الإسلام، لما ظهر إنكار أفعال الرب التي تقوم به ويفعلها بقدرته ومشيئته واختياره ؛ فحينئذ صار يفسر القرآن من يفسره بما ينافي ذلك،كما يفسر سائر أهل البدع القرآن على ما يوافق أقاويلهم. وأما أن ينقل هذا التفسير عن أحد من السلف فلا ، بل أقوال السلف الثابتة عنهم متفقة في هذا الباب ، لا يعرف لهم فيه قولان، كما قد يختلفون أحياناً في بعض الآيات. وإن اختلفت عباراتهم فمقصودهم واحد وهو إثبات علو اللّه على العرش.

فإن قيل : إذا كان اللّه لا يزال عالياً على المخلوقات كما تقدم ، فكيف يقال : ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان ؟ أو يقال : ثم علا على العرش ؟ قيل : هذا كما أخبر
٥/٥٢٢ / أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد ، وروى «ثم يعرج» ، وهو ـ سبحانه ـ لم يزل فوق العرش ، فإن صعوده من جنس نزوله. وإذا كان في نزوله لم يصر شيء من المخلوقات فوقه ، فهو ـ سبحانه ـ يصعد وإن لم يكن منها شيء فوقه.

وقوله :﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ**﴾[البقرة:٢٩] إنما فسروه بأنه ارتفع؛لأنه قال قبل هذا: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**﴾[فصلت : ٩-١٢]، وهذه نزلت في سورة (حم) بمكة. ثم أنزل اللّه في المدينة سورة البقرة :﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[البقرة : ٢٨، ٢٩] ، فلما ذكر أن استواءه إلى السماء كان بعد أن خلق الأرض وخلق ما فيها ، تضمن معنى الصعود؛ لأن السماء فوق الأرض ، فالاستواء إليها ارتفاع إليها.

فإن قيل : فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام ، فقبل ذلك لم يكن على العرش ؟ قيل : الاستواء علو خاص ، فكل مستو على شيء عال عليه، وليس كل عال على شيء مستو عليه.

٥/٥٢٣ ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره: إنه مستو عليه،واستوى عليه،/ ولكن كل

ما قيل فيه: إنه استوى على غيره؛ فإنه عال عليه. والذي أخبر اللّه أنه كان بعد خلق السموات والأرض «الاستواء» لا مطلق العلو ، مع أنه يجوز أنه كان مستوياً عليه قبل خلق السموات والأرض لما كان عرشه على الماء ، ثم لما خلق هذا العالم كان عالياً عليه ولم يكن مستوياً عليه ، فلما خلق هذا العالم استوى عليه ، فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له، كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك، وأما «الاستواء» فهو فعل يفعله ـ سبحانه وتعالى ـ بمشيئته وقدرته؛ ولهذا قال فيه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ ؛ ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر .

وأما علوه على المخلوقات فهو عند أئمة أهل الإثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع، وهذا اختيار أبي محمد بن كُلاَّب وغيره، وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى، وقول جماهير أهل السنة والحديث ونظار المثبتة.

وهذا الباب ـ ونحوه ـ إنما اشتبه على كثير من الناس؛ لأنهم صاروا يظنون أن ما وصف اللّه ـ عز وجل ـ به من جنس ما توصف به أجسامهم، فيرون ذلك يستلزم الجمع بين الضدين؛ فإن كونه فوق العرش مع نزوله يمتنع في مثل أجسامهم ، لكن مما يسهل عليهم معرفة إمكان هذا معرفة أرواحهم وصفاتها وأفعالها ، وأن الروح قد تعرج من النائم إلى السماء وهي لم تفارق البدن، كما قال تعالى :﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ [الزمر: ٤٢] وكذلك الساجد ، قال / النبي ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» (١). وكذلك تقرب الروح إلى اللّه في غير حال السجود مع أنها في بدنه؛ ولهذا يقول بعض السلف: القلوب جوّالة : قلب يجول حول العرش، وقلب يجول حول الحش. ٥/٥٢٤

وإذا قبضت الروح عرج بها إلى اللّه في أدنى زمان،ثم تعاد إلى البدن فتسأل وهي في البدن،ولو كان الجسم هو الصاعد النازل لكان ذلك في مدة طويلة،وكذلك ما وصف النبي ﷺ من حال الميت في قبره وسؤال منكر ونكير له ، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب ـ رضي اللّه عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أقعد الميت في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا اللّه ، فذلك قوله : ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم : ٢٧]»(٢).

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٣ .

(٢) البخارى فى الجنائز (١٣٦٩)، ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧١/ ٧٣).

وكذلك في صحيح البخاري وغيره عن قتادة ،عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا وضع في قبره ـ وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له :ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فيقول :أشهد أنه عبد اللّه ورسوله . فيقول له : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك اللّه به مقعداً من الجنة» قال النبي ﷺ : «فيراهما جميعاً. /وأما الكافر والمنافق فيقول : هاه، هاه، لا أدري ،كنت أقول ما يقول ٥/٥٢٥
الناس ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيقال له : لا دَرَيتَ ولا تَلَيْتَ، ويضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»(١).

والناس في مثل هذا على ثلاثة أقوال: منهم من ينكر إقعاد الميت مطلقاً ؛لأنه قد أحاط ببدنه من الحجارة والتراب ما لا يمكن قعوده معه، وقد يكون في صخر يطبق عليه، وقد يوضع على بدنه ما يكشف فيوجد بحاله ونحو ذلك ؛ ولهذا صار بعض الناس إلى أن عذاب القبر إنما هو على الروح فقط ،كما يقوله ابن ميسرة وابن حزم، وهذا قول منكر عند عامة أهل السنة والجماعة.

وصار آخرون إلى أن نفس البدن يقعد ،على ما فهموه من النصوص .

وصار آخرون يحتجون بالقدرة وبخبر الصادق ، ولا ينظرون إلى ما يعلم بالحس والمشاهدة ،وقدرة اللّه حق ، وخبر الصادق حق ، لكن الشأن في فهمهم.

وإذا عرف أن النائم يكون نائماً وتقعد روحه وتقوم وتمشي وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالاً وأموراً بباطن بدنه مع روحه، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب ، مع أن جسده مضطجع، وعينيه مغمضة ، وفمه مطبق، / وأعضاءه ساكنة، وقد يتحرك بدنه ٥/٥٢٦
لقوة الحركة الداخلة ، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح لقوة الأمر في باطنه ـ كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره؛ فإن روحه تقعد وتجلس وتسأل وتنعم وتعذب وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعاً في قبره. وقد يقوى الأمر حتى يظهر ذلك في بدنه، وقد يرى خارجاً من قبره والعذاب عليه وملائكة العذاب موكلة به، فيتحرك بدنه ويمشى ويخرج من قبره، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين في قبورهم ، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب ، ومن يقعد بدنه ـ أيضاً ـ إذا قوى الأمر، لكن هذا ليس لازما في حق كل ميت؛ كما أن قعود بدن النائم لما يراه ليس لازماً لكل نائم، بل هو بحسب قوة الأمر.

---

(١) البخاري فى الجنائز (١٣٧٤) ومسلم فى الجنة (٢٨٧٠ / ٧٠) .

وقوله:« ولا تَلَيْتَ » قال ابن الأثير :« هكذا يرويه المحدّثون. والصواب : ولا ائتَلَيت. وقيل : معناه : لا قرأت، أى : لا تلوت». انظر:النهاية ١/ ١٩٥.

وقد عرف أن أبداناً كثيرة لا يأكلها التراب كأبدان الأنبياء وغير الأنبياء من الصديقين، وشهداء أحد، وغير شهداء أحد ،والأخبار بذلك متواترة. لكن المقصود أن ما ذكره النبي ﷺ من إقعاد الميت مطلقاً هو متناول لقعودهم ببواطنهم، وإن كان ظاهر البدن مضطجعاً.

ومما يشبه هذا إخباره ﷺ بما رآه ليلة المعراج من الأنبياء في السموات ، وإنه رأى آدم وعيسى ويحيى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم ـ وأخبر ـ أيضاً ـ أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره، وقد رآه ـ أيضا ـ في السموات. ومعلوم أن أبدان الأنبياء في القبور إلا عيسى وإدريس . وإذا كان موسى قائما يصلي في
٥/٥٢٧ قبره، ثم رآه في السماء/ السادسة، مع قرب الزمان، فهذا أمر لا يحصل للجسد. ومن هذا الباب ـ أيضاً ـ نزول الملائكة ـ صلوات اللّه عليهم وسلامه ـ جبريل وغيره.

فإذا عرف أن ما وصفت به الملائكة وأرواح الآدميين من جنس الحركة والصعود والنزول وغير ذلك لا يماثل حركة أجسام الآدميين ، وغيرها مما نشهده بالأبصار في الدنيا، وأنه يمكن فيها ما لا يمكن في أجسام الآدميين ـ كان مايوصف به الرب من ذلك أولى بالإمكان، وأبعد عن مماثلة نزول الأجسام، بل نزوله لا يماثل نزول الملائكة وأرواح بني آدم، وإن كان ذلك أقرب من نزول أجسامهم.

وإذا كان قعود الميت في قبره ليس هو مثل قعود البدن، فما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ من لفظ «القعود والجلوس» في حق ـ اللّه تعالى ـ كحديث جعفر بن أبى طالب ـ رضي اللّه عنه ـ وحديث عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ وغيرهما أولى ألا يماثل صفات أجسام العباد.

/ فَصْـــل ٥/٥٢٨

نزاع الناس في معنى «حديث النزول»، وما أشبهه في الكتاب والسنة من الأفعال اللازمة المضافة إلى الرب ـ سبحانه وتعالى ـ مثل المجيء ، والإتيان ، والاستواء إلى السماء وعلى العرش، بل وفي الأفعال المتعدية مثل الخلق ، والإحسان، والعدل وغير ذلك ـ هو ناشئ عن نزاعهم في أصلين:

أحدهما : أن الرب ـ تعالى ـ هل يقوم به فعل من الأفعال ؛ فيكون خلقه للسموات والأرض فعلاً فعله غير المخلوق، أو أن فعله هوالمفعول، والخلق هوالمخلوق؟على قولين معروفين: